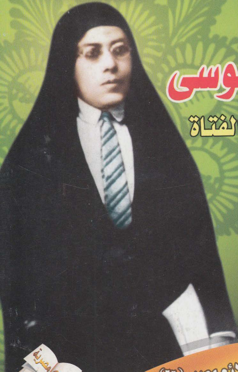
المجلس القومي للشباب
National Council For Youth

القراءة للجميع

الإذاعة والتليفزيون



نبوية موسى

رائدة تعليم الفتاة

أحمد زرزور

قمم مصرية

السلسلة الثقافية لطلائع مصر (٦٦)
يوليو ٢٠٠٩

قمم مصرية

٦٦

نبوية موسى

رائدة تعليم الفتاة



المجلس القومي للشباب
الإدارة المركزية للطلائع

السلسلة الثقافية لطلائع مصر

المراسلات
المجلس القومي للشباب
شارع ٢٦ يوليو، ميدان سفنكس
تليفون وفاكس: ٣٣٤٦٧٣٦٧
Web: www.alshabab.gov.eg

نبوية موسى
رائدة تعليم الفتاة

أحمد زرزور

العدد ٦٦
من السلسلة الثقافية لطلائع مصر
صادر مع مجلة الإذاعة والتليفزيون
٢٥ يوليو ٢٠٠٩

مقدمة

تقول الفيلسوفة الفرنسية «سيمون دي بوفوار» لقد آليت على نفسي أن أكون كشجرة البلوط القوية». وهو ما فعلته «نبوية موسى» سيدة العلم والمعرفة، وإحدى باحثات النهضة التعليمية في مصر، وتحديدًا في الفترة ما بين ١٨٨٠- ١٩٢٢م، تلك الفترة التي شهدت صعود هدى شعراوي ونبوية موسى كقائدتين للحركة النسوية.

لقد كانت نبوية موسى تاريخًا من النضال المبهر والمستمر، حتى آخر لحظة في حياتها، بدأ أول فصل فيه: بحصولها على «البكالوريا» وتعادل الآن شهادة الثانوية العامة، لتصبح أول فتاة مصرية تحصل على هذه الدرجة التي كانت حكرًا على الذكور فقط، ولم يكن مسموحًا لأية فتاة بالوصول إلى هذا المستوى من التعليم.

هكذا كانت نبوية موسى: إرادة صلبة لا تعرف الهزيمة، وَاجَهَتْ مجتمعًا متزمتًا بأكمله، يبدأ من أسرتها الصغيرة، ويمتد إلى وزارة المعارف نفسها، الجميع كان يقف وقتها ضد حصول المرأة على حقوقها التعليمية، مكتفيًا فقط بدورها التقليدي في المنـزل، وبقائها بداخله.

كانت الفتاة الصغيرة ذات الأعوام الستة، تحمل في أعماقها رغبة عارمة في اكتشاف حقائق الحياة، وليس من طريق غير العلم، العلم الذي ينهل منه شقيقها محمد، الذي يكبرها بعشر سنوات، والذي كان دائم السخرية من إصرارها على أن يقرأ لها بعض ما يدْرُسُه، وعلى مضض كان

يستجيب ليتخلص من إلحاحها ومطارداتها له كلما أمسك كتابًا. ولأنها كانت شديدة الثقة في نفسها، وتعرف تمامًا كيف تحقق أحلامها، لم تسمح لشيء أن يعرقل خطواتها على طريق العلم والمعرفة، متسائلة: ما الفرق بين الفتى والفتاة؟ أليس الاثنان ينتميان إلى أصل إنساني واحد؟ وما الضرر الذي يصيب المجتمع إذا حصلت الفتاة على نصيبها من التعليم كالفتى؟ ألا يعتبر ذلك نوعًا من أنواع الظلم الاجتماعي؟ ولماذا لا يسمحون للفتاة بإكمال تعليمها فيما بعد المرحلة الابتدائية؟

كانت (نبوية) لا تكُفُّ عن إطلاق عشرات التساؤلات بشجاعة لم تكن معهودة في ذلك الوقت عند الفتيات، وإلى أن يتحقق حلمها الذي ملك عليها مشاعرها، لم تتوقف عن حفظ القصائد التي كان يُردِّدها شقيقُها أمامها من كتب المدرسة، وعلَّمت نفسها مبادئ الحساب، وعلَّمها هو قواعد اللغة الإنجليزية بعد أن تأكَّد من عنادها في ألا تترك شيئًا إلا وتعلَّمته.

وهكذا صمَّمت الفتاة الذكية والمثابرة على الالتحاق بالتعليم، لتصطدم بعقبتين: رفض والدتها للفكرة، معتبرة ذلك خروجًا على قواعد الآداب والحياة والدين، ثم عقبة المصروفات. ولم يكن رفض والدتها مؤثرًا على عزيمتها، أما العقبة الثانية فقد تجاوزتها بطريقتها، وهو ما سيتضح في تفاصيل سيرتها الذاتية.

وهكذا لم يبق أمامها غير مواجهة المجتمع، وهو ما سنكتشفه من ثنايا هذا الكتاب، وكيف تعاملت مع كل محاولات تعطيل مسيرتها التعليمية، والحيلولة دون تحقيق دعوتها لتعليم الفتاة المصرية تعليمًا كاملاً، تمامًا

كالذكور، وهو ما سجلته في كتاب لها يحمل عنوان: «تاريخي بقلمي»، فليس أصدق من السيرة الذاتية التي تقدم كافة تفاصيل الحياة الشخصية بوضوح تام.

إن (نبوية موسى) واحدة من أهم سيدات النهضة التعليمية للفتاة في مصر، وقد تحملت في سبيل ذلك مصاعب وتحديات هائلة من كافة فئات المجتمع آنذاك، مما يجعلنا نطلق عليها- وبحق- لقب : «رائدة تعليم الفتيات».

الفصل الأول

النـزوع إلى الحريــة

ولدت (نبوية موسى) محمد بدوية في ١٧ ديسمبر ١٨٨٦ بقرية «كفر الحكما» بندر الزقازيق محافظة الشرقية، كان والدها ضابطًا بالجيش المصري برتبة يوزباشى. كان له في بلدته بمديرية القليوبية منـزل ريفي كبير وبضعة فدادين يؤجرها حين يعود إلى مقر عمله. وقد سافر والدها إلى السودان قبل ميلاد نبوية بشهرين ولم يعد من هناك. فنشأت (نبوية) يتيمة الأب ولم تره. كما تقول إلا في المنام، عاشت هي ووالدتها وشقيقها محمد في القاهرة، لوجود أخيها بالمدرسة واعتمدت الأسرة على معاش الأب وعائد الأرض.

وفي الصيف عندما ينتهي شقيقها من دراسته، كانت الأم تذهب إلى بلدتهم فيقضون إجازة الصيف في ذلك المنزل الريفي. وتتضح بعض جوانب شخصية (نبوية) من كيفية تمضية وقتها في الريف. فلم تكن تتعدَّى السادسة من عمرها، وبالرغم من ذلك كان يلتف حولها بعض أطفال القرية، وكانت تكلفهم العمل معها: تأمرهم فيطيعون، وتنهاهم فيستمعون، وكأنها رئيستهم. وكانوا يقضون اليوم في عمل متواصل: تبني أفرانًا صغيرة تسوِّي فيها ما تصنعه من الطوب، الذي تبني به منازل صغيرة تحيطها بالحدائق التي تزرع فيها الفول والذرة، ثم تشّكل ماشية:

جاموس، بقر، حمير، جمال، خيول، وكانت تحاول تصويرها تصويرًا يقرب من الحقيقة.

وتتحدث (نبوية موسى) بشيء من التفصيل حول طفولتها في القرية، وكذلك من تجاربها في مجال التعليم، وذلك في سلسلة من المقالات الصحفية التي كانت تنشرها في مجلتها الأسبوعية «الفتاة» بعد إنشائها.

تقول في إحدى مقالاتها بعنوان «طفولتي»: سكنت والدتي القاهرة لوجود أخي بالمدارس، ولكنها كانت تذهب أثناء الصيف عندما ينتهي شقيقي من دراسته إلى بلدتنا، فنقضي إجازة الصيف في ذلك المنزل الريفي. وكنت أُسَرّ بتلك الإجازة، وأعمل فيها أعمالاً كثيرة، إذ كان يلتف حولي كثير من أطفال جيراننا في تلك القرية، وكنت أكلفهم العمل معي، فأضرب طوبًا صغيرًا، وأبني به أفرانًا صغيرة كنا نسوّي فيها بعد ذلك ما نصنعه من الطوب، ثم نبني به منازل صغيرة كانت على ما أعتقد غاية في الإتقان، وكان في منزلنا الريفي بئر نأخذ منها الماء اللازم لبناء تلك المنازل، ونحيطها بالحدائق، ولعلها لم تكن غَنَّاء، لأننا كنا نزرع فيها بعض النباتات فقط كالفول والذرة. وهكذا كنت أقضي إجازة الصيف لا أعرف للراحة طعمًا، وكلما انتهيت من منزل بدأتُ في بناء غيره، وعمل ماشية له كالجاموس والبقر والحمير والخيول والجمال، وكنتُ أعنى بتمثيلها تمثيلاً يقرب من الحقيقة على قدر طاقتي. وكان يعجب بها كثيرون ممن يرونها، لقربها من الحقيقة حتى أن الأفران التي كنا نبنيها كانت تحمي ويظهر في جوفها اللهب كالأفران الحقيقية تمامًا، وكنت أخبز فيها الخبز الصغير الذي كنت أصنعه أحيانًا، ولم أكن مع صغر سني أبرح ذلك المنزل، لاشتغالي بتلك الأعمال، ومراقبة مَرْءُوسِيَّ من أطفال القرية.

ومن المدهش العجيب أني كنت آمُر هؤلاء الأطفال، فيطيعون وأنهاهم فيستمعون، وكنا نقضي اليوم في عمل متواصل كأننا نقوم باكتساب قوتنا وكأني رئيستهم الفعلية. وكنتُ إذا انتهيت من ذلك، وتعب الأطفال الذين يعملون معي، ابتدأت أخيط ملابس عروستي وأعمل للجمال والخيول سروجًا من القماش المزين البديع. وهكذا كنتُ أقضي إجازة الصيف، حتى إذا انتهت تركتُ ما عُنيتُ بعمله من المنازل والتماثيل، وانتقلت بعروستي وقطتي الصغيرة إلى القاهرة، وكنت مشهورة بحب القطط والعناية بها، حتى أني كنت أكسوها ملابس مزخرفة بشتى الزخرف، وكنت أقوم أنا بخياطتها وزخرفتها، وكانت تلك القطط والعروسة هي عملي الوحيد في القاهرة، ولم يكن معي من الأطفال من يُساعدني على ما أقوم به من الأعمال، إلا خادمة صغيرة في مثل سني، كنت أختلسها اختلاسا من والدتي.

وكنتُ أميل إلى مجالسة شقيقي عند حضوره من المدرسة، وكان يكبرني بنحو ١٠ سنوات، فكنت أستمع لما يقرؤه من القصص، وأجتهد في فهمها، وكثيرًا ما كنت أحفظ ما يحفظه هو من المحفوظات. أما أثناء النهار، فكنتُ أقضيه كما قدمت في خياطة ملابس القطط والعروسة، ثم تدرَّجتُ من ذلك إلى خياطة ملابسي على آلة الخياطة.

الفصل الثاني

رفض التبعية

نشأت (نبوية موسى) وعاشت في فترة تاريخية كانت مصر فيها خاضعة للاحتلال الإنجليزي، كما كان المجتمع المصري مجتمعًا أبويًّا لم يألف تواجُد المرأة في مجال العلم أو العمل. وفي ظل الاستعمار والأبوية تسعى «الذات» دائمًا إلى السيطرة والسيادة على الآخر، وينقسم المجتمع إلى سيد/ مسود، قاهر/ مقهور، وقد احتلت المرأة المصرية المكانة الثانية بحكم نوعها (أنثى) وجنسيتها (مصرية). وفي ظل هذا الوضع يكون القهر هو القاعدة لا الاستثناء، خاصة عندما يكون المقهور قد اعتاد القهر فأصبح يجري في دمه جزءًا لا يتجزأ من ذاته، فيتقبله ويدعم أسسه، ويضمن استمرارية علاقة القهر بأن يتقبله هو على نفسه، وبأن يقهر من هو أضعف منه.

لكن (نبوية) كانت عزيزة النفس، شديدة الثقة بالنفس، رافضة للقهر والسيطرة والخضوع والتبعية والانصياع لأوامر الآخرين بدون مُساءلة. ولعلَّ غياب الأب وعلاقة الصداقة التي نمت بينها وبين أخيها، هي التي سمحت لتربية الأم أن يكون لها على (نبوية) هذا الأثرُ الكبير. فمن الصعب أن يرضى بالاضطهاد من تغذَّى على الحب، وقد تغذَّت (نبوية) على حُبِّ أمها حتى سنِّ الثالثة عشرة (التحاقها بالمدرسة)، ذلك الحب الذي كان يصل أحيانًا إلى حدّ «الدلع»، حتى أن (نبوية) وهي في الثامنة

من عُمرها حينما مرضت مرضًا لم يتمكن الأطباء من علاجه، صمّمت الأم على أن تقيم حفلة زار لابنتها، وهو من الممارسات الشعبية الخاطئة التي حيث يظنون أنه يجلب الشفاء. ورغم أنها لم يكن لديها سوى مبلغ مائتي جنيه، هو ثمن منـزل باعته وكانت تنوي شراء غيره، إلا أنها أنفقته كله على الزار وعلى شراء أساور وقلادات من الذهب وقرط من الماس لنبوية، حتى أنه حينما كانت (نبوية) تنـزل إلى الشارع كانت تلفت الأنظار إليها، فقد كانت طفلة لم تتجاوز (الثامنة) تلبس من المصاغ ما تلبسه الأنسات الرشيدات.

المكانة الأولى دائمًا

ولذا فإن هذه المعاملة اللينة قد أكسبتها ثقة بالنفس، جعلتها ترفض احتلال مكانة ثانوية في الحياة وتأبى التبعية لأية سلطة كانت، سواء من الإنجليز أم من المصريين، رجالاً ونساء، مدرسين ونُظّارًا، وزراء معارف أو مستشاري وزارات. وقد كانت في المدرسة تتعامل مع المعلمات الإنجليزيات معاملة النِّدِّ للنِّدِّ، فكانت هي وزميلاتها يترجمن أسماءهن على سبيل الفكاهة فينادين «مس كارتر» بـ «الست عربجي». ولم تكن (نبوية) لترضى التنازل قط عن مبادئها، ففي (المدرسة السنية) أثارت كراهية الناظرة الإنجليزية، عندما رفضت الاعتذار لها، حيث لم تر (نبوية) أنها فعلت شيئًا يستحق الاعتذار، وهي كراهية دفعت (نبوية) ثمنها طوال دراستها في هذه المدرسة، ونجم عنها اضطهاد هذه الناظرة لها، ورفضها تعيين نبوية بعد ذلك في مدرستها كمُدرِّسة: كان الواجب أن أعين في المدرسة السنية نفسها، ولكن حضرة الناظرة قالت إنها لا تسمح لمكان واحد أن يضمني ويضمها إلا القبر.

ولعل رفضها للخضوع والتمشي مع السائد يفسِّر مسار حياتها العملية، الذي هو عبارة عن حالة تنقُّل مستمرّ بين الوظائف على مستوى الجمهورية: فمن مدرسة السنية، لمدرسة عباس بالقاهرة، لناظرة المدرسة المحمدية للبنات بالفيوم، ثم لمدرسة معلمات المنصورة، ثم نقل للمعارف مرة أخرى كوكيلة معلمات بولاق، ثم ناظرة مدرسة الورديان بالإسكندرية، ثم إبعادها بتعيينها مفتشة للتعليم الأولي بالوزارة، ثم محاولة نفيها بعيدًا عن التعليم، بإعطائها إجازة مفتوحة مدفوعة الأجر، وعند فشل المحاولة فتحت مدارس خاصة، وتفرَّغت لها، نقلت إلى القاهرة مرة أخرى بوظيفة كبيرة مفتشات بالوزارة، ثم لنظارة معلمات بولاق، ثم إيقاف عن العمل.

وتمثل لهجة خطابها الموجه إلى اللورد دنلوب مستشار وزارة المعارف الإنجليزي عينّة من موقفها من السلطة، وعلاقتها معها (سواء تمثلت تلك السلطة في إنجليز أو مصريين): فعندما ضاقت بالعمل وكيلة لمعلمات بولاق (وكان هو الذي نقلها) كتبت له:

«إني أعرف جيدًا أنك مستشار وزارة المعارف أي وزيرها الفعلي، وأن في استطاعتك أن تفصلني من عملي بلا ذنب، ولا يستطيع أحد أن يناقشك في ذلك، بل أنت أقوى من ذلك، فإنك تستطيع أن تمنعني من التوظف في جميع مجالس المديريات، من أي عمل حُرٍّ مهما كان، وأنت- فوق كل هذا وذلك- الرجل الإنجليزي النافذ الكلمة، وفي البلد أحكام عرفية، فأنت تستطيع التخلص من حياتي بكلمة تخرج من فمك. ولكني أريد أن أسدي إليك معروفًا، بأن أطلعك على ما يقال في غيبتك، والرجل القوي

العظيم لا يعرف ما يقال عنه، وقد يفيده ذلك لو عرفه، فأنا أقول لك- مع شدة احترامي لشخصك-: إني إذا دخلت غرفة نومي وأغلقت نوافذها وأبوابها، ووثقت أن أحدًا لا يسمعني من خلق الله، قلت فيك ما يأتي:

«إن هذا المستشار أشرّ من الألمان، لأن أولئك الألمان يغتصبون حق محارب، أما هو فيغتصب حق مسالم، وقد اغتصب حقي بعد أن وثقت به وسلمته إليه».

الفصل الثالث

كيف تعلمت نبوية موسى

ولم تكن والدة (نبوية موسى) من الأمهات اللاتي يحرصن على اكتساب بناتهن مهارات وقدرات معينة في مجالات الفنون، فلم تحرص على تعليمها العزف على البيانو أو الغناء أو الرسم أو التطريز، وهي اهتمامات كان مجتمع الطبقة الوسطى يتوقع من البنت إتقانها. وإذا كان المثل السائد وقتها: «عَلِّمُوهُنَّ الغَزْل ولا تعلموهن الخط» فإن أمها. طبقًا لنصيحة عَمِّها بخصوص رغبة (نبوية) في الالتحاق بالمدرسة السنية، رفضت أن تأتي لنبوية بمدرس يعلمها الحساب (حتى تتمكن من اجتياز امتحان القبول بالمدرسة) ولكنها لم تعلمها «الغزل» أيضًا.

وهكذا لم يتحكم في طفولة نبوية نظام صارم أو قيود أو كَبْت. وكان لغياب صورة محدَّدة لدى الأم لما يجب أن تتقنه الفتاة، أكبر الأثر في إعطاء (نبوية) المساحة الرحبة لكي تفكر بحرية، وتتصرَّف بحرية، وتشكل عالمها الصغير بحرية، بنفسها وبيدها لا بيد الآخرين.

ومثلما مضت (نبوية) وهي في السادسة تُطَوِّع الطمي وتشكّل منه منازل صغيرة وماشية، تمكنت من تشكيل وتطويع شخصيتها هي نفسها، لتصبح شخصية فريدة، لم ترضخ للهوية المفروضة على البنت من قبل المجتمع.

فلا عجب، إذن، أن يكون رَدُّ فعلها لأسئلة أحد المدرسين، والذي كان يمتحنها شفويًّا، وأخذ يسألها إذا كانت تحسن الغناء أو إذا كانت تعرف

الرقص، أو إذا كانت تلعب البيانو (فتجيبه كل مرة بالرفض): «لا تسألني هذه الأسئلة فإني لم أخلق لمثل هذه الحياة».

وقد وصل انطلاق الطفولة ذروته، عندما قررت (نبوية) الالتحاق بالمدرسة السَّنية، ولعل القرار المبنيَّ على التفكير الحر، والذي يصل إليه الإنسان وحده بدون مشورة الآخرين، يُعطي صاحبه قوة إرادة وتصميمًا وجرأة. فلم تجد (نبوية) أية مساندة من عائلتها عند اتخاذها هذا القرار. فقد اعتبرته أمها «خروجًا على قواعد الأدب والحياء ومروقًا من التربية والدين». كما رفض كل من عَمِّها وأخوها. علمًا بأن أخاها هو الذي علّمها حروف الهجاء، لتقرأ، وقرأ لها من الأدب العربي فتذوقته. غير أن الأغلبية الرافضة لم تستطع أن تتغلب على رغبتها الجامحة في دخول المدرسة: فذهبت (نبوية) سرًا إلى المدرسة. سرقت ختم والدتها لتقدم هي لنفسها بدلاً من ولية أمرها وباعت سوارًا من الذهب حتى تحمل المدرسة على قبول طلبها الذي جعلته بمصروفات (حيث كانت أغلب طالبات السنية في ذلك الوقت يتعلمن بالمجاني). وبالرغم من الحب والاحترام الشديد الذي كانت تكنه لأخيها، إلا أنه عندما هددها بمقاطعتها إذا دخلت المدرسة السنية، ابتسمت وقالت له: لقد نقص إذن من أقربائي واحد، ولا ضير في ذلك، فقاطعها لمدة عام.

رائدة من الطفولة

نبوية موسى هي رائدة تعليم الفتيات في مصر الحديثة. وكان التعليم بمثابة قضية عمرها، التي كافحت في سبيلها على مدى مراحل حياتها المختلفة: تلميذة ومعلمة وناظرة وامرأة مصرية، وكانت ترى في التعليم

طريقًا إلى تحقيق المساواة بين الجنسين، والسبيل نحو نهضة المرأة المصرية فانعكس إيمانها بأهمية التعليم على حياتها ساعية إليه، وعاملة على إتاحة الفرصة للفتاة المصرية، فهي أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا في عام ١٩٠٧، وهي أول امرأة تعمل معلمة للغة العربية. وأول ناظرة مصرية ولعلها أول امرأة مصرية تتخذ من تعليم الفتيات قضية وطنية.

الحفظ من أول مرة

وحين تقُصُّ (نبوية موسى) في مذكراتها رحلتها مع التعليم، تذكر الكيفية التي تعلمت بها مبادئ القراءة والكتابة في البيت، مثلها في ذلك مثل بنات جنسها وطبقتها الوسطى، وتصف كيف تعلمت القراءة من خلال تذوقها الشعر العربي، فكانت تحفظ القصائد العربية التي يرددها شقيقها محمد، وكان يكبرها بعشرة أعوام، ثم من خلال التدريب على قراءتها، علمت نفسها القراءة، أما الكتابة فقد تعلمتها نبوية عن طريق محاكاة النصوص المكتوبة، وهو ما تصفه بقولها: «ولما كانت قد حفظتُها (أي القصيدة) عن ظهر قلب قبل أن اقرأها، فقد كنت أتعلم منها القراءة. ثم ملت بعد هذا إلى الكتابة محاكية ما قرأته».

تقول نبوية تحت عنوان: «كيف تذوقت الأدب العربي قبل أن أعرف القراءة والكتابة»:

كنت في سن السادسة لما كان شقيقي في سن السادسة عشر، وكان طالبًا في المدارس الثانوية، وقد ألف مجالستي، فكان يقرأ لي في كتب الأدب القديمة كالأغاني وغيره، وكنت أصغى إليه باهتمام حتى تعوَّدتُ فهمها،

وكان إذا حاول حفظ قصيدة كلفته المدرسة حفظها، حفظتها معه. ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال، فهم لا يجدون فيها صعوبة، ولهذا كنت كثيرًا ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعي له وهو يقرؤها، قبل أن يحفظها هو، وكان يسُرُّه ذلك، فيسمعها لي ويطلب مني أن أسمعها له، وهكذا تمت بيننا الصداقة والألفة، واستطعت أنا أن أتذوق الأدب العربي قبل أن أعرف الألف من الباء.

ولم تكتفِ (نبوية موسى) بهذا القدر من العلم، وإنما أصرَّت على الالتحاق بالتعليم المدرسي، وهو ما لم يكن مقبولاً أو مستساغًا اجتماعيًا في بدايات القرن العشرين. فكان عليها بالتالي مواجهة قوتين معارضتين لها، وهما الأسرة والمجتمع بشكل عام، وكانت قد قررت الالتحاق بالسنة الثالثة في المدرسة السنية، وهو ما يتطلب معرفتها بمبادئ الحساب. ولما رفضت والدتها تعيين معلم لها، استعانت (نبوية) بأخيها ليأتيها بكتاب الحساب المقرر على السنة الثانية، وأخذت تعلم نفسها مبادئ الحساب. كما لجأت إلى أخيها ليعلمها- كما تقول- «ألف باء اللغة الإنجليزية، مستعينة بالوقت القليل الذي كنت أختلسه من أخي، متحمِّلة تمنُّعه وسخريته مني».

وتشير (نبوية موسى) إلى ردِّ فعل والدتها تجاه سعيها للالتحاق بالمدرسة السَّنيَّة، وهو ما اعتبرته والدتها «خروجًا على قواعد الأدب والحياء ومروقًا من التربية والدين»، وهو ما يعكس رؤية المجتمع حينذاك لخروج الفتاة إلى المدارس، طلبًا للعلم. وتجدر الإشارة إلى أن كفاح (نبوية) في سبيل تعليم نفسها، ووعيها بمدى مقاومة المجتمع لتعليم الفتيات، مع إيمانها الشديد بالعلم كقيمة تنهض بالمجتمع ككل، إنما يفسر لنا التشدد الذي عُرفت به


ملك حفني ناصف
هدى شعراوي

(نبوية موسى) معلمة وناظرة نحو تلميذاتها والمعلمات، وسعيها الدائم نحو الحشمة والكمال في وجه مجتمع يشكك في أخلاق تلميذات المدارس والمعلمات.

وتكشف بدايات علاقة نبوية موسى بالتعليم عن جوانب فذة في شخصيتها، لعل من أبرزها ذكاؤها الذي مكنها من تعليم نفسها بنفسها، وقوة عزيمتها، وتصميمها على تنفيذ إرادتها وإصرارها على تحقيق أهدافها أيًّا كانت المعوِّقات، ودون الخضوع لمجتمع كان يرى في تعليم البنات خروجًا على الآداب العامة.

عام الفتيات المتعلمات

وهكذا التحقت (نبوية موسى) بالقسم الخارجي للمدرسة السَّنيَّة في عام ١٩٠١، وهو العام الذي حصلت فيه الفتاة المصرية، ولأول مرة. ممثلة في (ملك حفني ناصف وفكتوريا عوض) على الشهادة الابتدائية وفي عام ١٩٠٣ الذي شهد تعيين (ملك وفكتوريا) معلمتين في السنية بعد نجاحهما في دبلوم المعلمات، التحقت نبوية موسى بالسنة الأولى قسم معلمات السنية، وقد حصلت على دبلوم المعلمات سنة ١٩٠٦ لتعيَّن معلمةً بمدرسة عباس الأميرية للبنات، لتبدأ رحلتها في مجال ممارسة التعليم.

الفصل الرابع

كيف دخلت المدرسة السنية

وتحكي لنا (نبوية موسى) عن إصرارها في الحصول مع حقها في التعليم، تمامًا كأخيها، وكيف استطاعت بالحيلة والذكاء والإرادة القوية أن تحقق حلمها الكبير، غير مكتفية بمطالعة القرآن وحفظه، متحدية تقاليد مجتمعها التي كانت تقف ضد هذا الحق للفتيات، حتى لو اضطرت إلى مواجهة الجميع، وفي مقالة لها بعنوان «كيف دخلت المدرسة السنية» تقول :

اتجهتُ إلى التعليم كما قدمت، ولم أكتفِ بمطالعة القرآن وحفظه، بل أردتُ أن أتعلم تعليمًا صحيحًا في المدرسة السنية، وتعلمت من أخي أني إذا أردت دخول السنة الثالثة، وجب عليّ أن أعرف مقرر الحساب للسنة الثانية، وهو جمع وطرح وضرب وقسمة الأعداد الصحيحة والكسور الاعتيادية، وكان سنِّي في ذلك الوقت ١٣ عامًا فطلبت من والدتي أن تعين لي معلمًا، واستشارت عَمَّها، فقال لها جملتهم المأثورة «علموهن الغَزْل ولا تعلموهن الخط».

وهكذا رفضت والدتي أن تعين لي معلمًا، ورفضت أيضًا أن تعلمني الغَزْل إذ إنني أجهله حتى الآن.

ساءني ذلك والتجأتُ إلى أخي، ولكنه في ذلك الوقت كان مشغولاً عني بمدرسته، فأحضر لي كتاب الحساب المقرر على السنة الثانية، وكان

فيه لحسن الخط شرح تلك القواعد، فتعلمت منه الأربع قواعد الأصلية للأعداد الصحيحة، والكسور الاعتيادية أيضًا، ولا أنكر أني وجدت شيئًا من الصعوبة في فهم عمليات الكسور الاعتيادية من الكتاب، ولكني تغلبت عليها، وحاولت في الوقت ذاته أن أتعلم ألف باء اللغة الإنجليزية، مستعينة بالوقت القليل الذي كنت أختلسه من أخي، متحملة تمنعه وسخريته مني، وأخيرًا عوّلت أن ألتحق بالمدرسة السنية، ولما كاشفتُ والدتي برغبتي قامت لذلك وقعدت، واعتبرته خروجًا على قواعد الأدب والحياء ومروقًا من التربية والدين، وأخذت تقص الحكاية على أقاربها كأنها أحدوثة. وكان يساعدها على ذلك كل من سمع تلك الرغبة الجامحة.

صمَّمتْ هي على الرفض، وصمَّمتُ على تنفيذ رغبتي مهما بلغ الأمر، ولكني رأيتُ أن أخفي عنها تلك الرغبة مؤقتًا، وأن أحاول الالتحاق بالمدرسة السنية، دون أن أخبرها بذلك، فإذا نجحتُ وقبلتني المدرسة كان لي ولها شأن.

تكتمتُ الأمر وعَوّلتُ على تنفيذه سرًا، فسرقتُ ختم والدتي، وذهبتُ إلى المدرسة السنية، وكتبت استمارة التحاقي بها، وختمتها بختم والدتي، ولا أنكر أن خَطّي في تلك الاستمارة كان مضطربًا رديئًا، لأني لم أعتد الكتابة، ولم أحسن إمساك القلم، وعجب سكرتير المدرسة السنية والمعلمون من جرأة تلك الفتاة التي جاءت لتقدم لنفسها. ولكي أحملهم على قبول طلبي جعلته بمصرفات، وكان أغلب طالبات السنية في ذلك الوقت يتعلمن بالمجاني، لعدم إقبال الأهالي إذ ذاك على تعليم البنات، ولهذا ظننتُ أن طلبًا تقوم صاحبته بدفع المصروفات جدير بأن لا يُرَدّ.

دخلتُ الامتحان، وما كان أشده وأقساه على فتاة في سن ١٣ عامًا، لم تر نظام المدارس، ولم تُحسن إمساك القلم. فكان يلعب بي بدلاً من أن ألعب أنا به. فكم لوثت ورقة، وكسرت قلمًا في ذلك الامتحان، فكانت ورقتي في اللغة العربية كلامًا عربيًا صحيحًا، وخطأ لا يختلف كثيرًا عن خطوط الأطفال. وقد تعجَّب المعلمون من رداءة الخطّ وجَوْدة الإنشاء: إنشاء لا تستطيعه طالبة في المدارس الثانوية، وخَطّ لا تكتبه تلميذة في السنة الأولى الابتدائية.

هل أنت فليسوفة؟

دخلتُ امتحان الحساب، وكان واضعه الشيخ أحمد التوني، وكان يشمل ثلاث مسائل عقلية لا تحتاج إلى العمل، ومسألة واحدة عملية فيها عملية ضرب طويلة.

أراد الأستاذ بذلك أن يعجز تلك الطالبة المستجدة بهذه المسائل العقلية، ثم أعطاها مسألة واحدة، هي التي ظن أنها تستطيع حلها، وكان الأمر على عكس ما ظنه الأستاذ، فقد كنتُ قوية في حل المسائل العقلية، وكنتُ مع ذلك ضعيفة في العمليات لم أحفظ جدول الضرب بعد.

ولما كانت المسائل العقلية لا تحتاج إلا إلى عمل بسيط لا يتجاوز الرقم الواحد، فقد ابتدأت بالمسائل العقلية فحللتها، ثم أخذت بعد ذلك أغالب عملية الضرب لأتغلب عليها، فتفوز عليَّ وتقهرني.

وجاء الأستاذ وكنتُ وحدي في الغرفة، لأنه لم يتقدم إلى امتحان السنة الثالثة سواي. جاء الأستاذ وألقى نظرة على الورقة، فدهش، إذ كان حَلِّي للمسائل الثلاث صحيحًا، فقال باسمًا: لقد كان الامتحان سهلاً؟ قلت:

نعم، ولكني أطلب المساعدة في عملية الضرب هذه، فدهش الأستاذ وقال: «الخبر إيه؟ هل أنت من الفلاسفة؟ قلتُ: كَلاَّ ولكني لم أحفظ جدول الضرب، فضحك الأستاذ وقال يكفيك حل ثلاث مسائل.

اقبلوني سأدفع المصروفات

أما امتحان اللغة الإنجليزية، فقد كان إملاء سهلاً جدًّا، ومع ذلك فقد أخطأت في نصف كلماته، وخشيت أن لا أقبل بالمدرسة فاتصلتُ بالمعلمين، ورجوتهم أن يقبلوني، مؤكدة لهم أني سأدفع المصروفات، لاعتقادي أني سأنجح في النهاية، فإن فشلت فأنا التي سأخسر لا المدرسة، وضحك المعلمون من التماسي هذا، وصمَّموا على قبولي بالرغم من ضعفي في اللغة الإنجليزية ورداءة خطي.

سُررتُ سرورًا عظيمًا عندما علمت بقبولي في المدرسة السنية، وكنت أحتفظ بالقسط الأول من المصروفات في جيبي فدفعتها، وهي ٢٥٠ قرشًا، لأن التلميذة الخارجية كانت تدفع ٧٥٠ قرشًا سنويًا وتتناول الغذاء بالمدرسة، والداخلية ١٥ جنيهًا.

ولعل القارئ يسأل: من أين جئت بالنقود؟ والواقع أني بعت سوارًا من الذهب بخمسة جنيهات، إذ أصبحت في ذلك الوقت أحتقر الحُلِيّ.

ذهبتُ إلى المنزل وأنا أكاد أطير من الفرح، فأخبرتُ والدتي بالتحاقي بالمدرسة السنية، قالت: إذا فعلت فلا علاقة لي بك. قلت: لقد فعلتُ ولا شك في ذلك وأنا ذاهبة لا محالة، فإن تشبثت بالرفض وعدم القبول، فسأدخل المدرسة الداخلية وفي معاشي ما يقوم بذلك، قالت: أحق ما تقولين؟ قلتُ: نعم، حق لا ريب فيه، وسأذهب إليها يوم السبت. قالت:

إذن فلا تدخيلها داخلية وكوني خارجية. قلتُ: حسنًا. وفي يوم الجمعة زارني شقيقي فقال لي: تأكدي، إن دخلتِ السنية فلن أعرفك. فابتسمتُ قائلة: لقد نقص إذن من أقربائي واحد، ولا ضير في ذلك. فغضب أخي وانصرف.

وفي يوم السبت ذهبتُ إلى (السنية) فكان خجل، وكان حياء، وكان اضطراب لحالة لم آلفها، فقد كنت قبل ذلك في المنزل، فلم أرَ من الرجال إلا أخي، أما اليوم فقد رأيت كثيرًا من المعلمين والخدم، ولهذا كنتُ أنتقد أية حركة تبدو من أي معلم، بل وأية كلمة تنبو عن موضعها، وكنت أقيس حركاتي وسكناتي بالمللّي، حتى لا تخرج عن معنى الأدب والكمال الذي تعودته في منـزلي تحت إشراف والدتي وملاحظات أخي الكبير القاسية.

الفصل الخامس

أول بكالوريا.. لفتاة مصرية

كانت المساواة شعار (نبوية موسى) الدائم، فلم تكن تقبل بالفتات وتعتبر أنه ما تكتبه الأقدار. فعند تعيينها معلمة بعد تخرجها من معلمات السنية، ساءها أن تأخذ نصف مرتب الرجل فتقول:

«فساءني أن تعاملنا الحكومة ونحن نعمل معاملة الوراثة أي نصف الرجل. لا أنكر أن الوراثة على حق، لأنها ليست من مجهود أحد، أما أن تعمل الفتاة ما يعمله الرجل، ثم تتناول نصف مرتبه، فهذا ما لا يُعقل. لهذا ثارت ثائرتي».

وهكذا دخلت (نبوية موسى) معركة البكالوريا لتتساوى مع خريجي المعلمين العليا. ومما هو لافت للنظر عند قراءة مذكرات (نبوية موسى) أن كل مواقفها من تمييز المجتمع بين الجنسين، فإننا نراها تعبر عنه في كتابها من خلال قضية التعليم، بداية من اضطرارها إلى التمرد على أسرتها ووالدتها سعيًا للحصول على الشهادات الدراسية (أسوة بأخيها)، وفي مرحلة لاحقة اعترضت على أن تعاملها الحكومة «معاملة الوراثة أي نصف الرجل» وتمضي (نبوية موسى) في دعوتها كي تشمل كافة نواحي الحياة فتقول:

لقد كنتُ أدرِّس كما يدرِّس الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة. فكنا جميعًا ندرِّس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه (الرجل)

الوزارة عني- لا بجنيه ولا بجنيهين بل بضعف مرتبي؟ لقد كنتُ أعمل جاهدة في أن تتساوى المرأة بالرجل في الوظائف وفي كل شيء.

ومن هنا- ولتجاوز هذا الفارق ولتأكيد مساواتها بالرجل- تقدمت نبوية موسى للحصول على شهادة البكالوريا، لتكون أول فتاة مصرية تنالها عام ١٩٠٧، وهو حدَثٌ كانت تراه أقرب إلى الانتصار العظيم، حين تعقب في مذكراتها: «ولو أنني إذ ذاك فتحتُ فرنسا، لما كان لاسمي رنة أشد مما كان له على إثر نيل تلك الشهادة العظيمة أي شهادة البكالوريا. وكان إيمانها بالعلم يماثل إيمانها الكامل بحقها في العمل، ولذا نراها تلتحق في عام ١٩١٢ بمدرسة الحقوق لتنال درجة علمية تمكنها من العمل، حيث قلقت من نوايا وزارة المعارف في استبعادها من العمل في مجال التعليم.

لجنة خاصة لامتحاني!

وتكتب لنا (نبوية موسى) كيف واجهت التحديات لتحصل على شهادة البكالوريا، وتصبح حديث المجتمع المصري، في ذلك الوقت، فتقول:

«لقد كنت أدرس كما يدرس الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة. فكنا جميعًا ندرس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه الوزارة عني لا بجنيه ولا بجنيهين بل بضعف مرتبي؟ لقد كنت أعمل جاهدة في أن تتساوي المرأة بالرجل في الوظائف وفي كل شيء وكان رأيي كما قدمت أن أصل إلى تقرير ما أريده بالعمل لا بالقول. فقد قررت السفور، لا بمقالات منمقة وآراء شيقة، بل بخروجي سافرة. إذن لم لا أقرر المساواة بين الفتاة والفتى في التوظف، لا بشيق المقالات، ولكن بالعمل الذي لا يقبل الجدال، ولهذا طلبت من الوزارة أن تسوى بيننا وبين الرجال في المرتب،

فأجابتني الوزارة بأني وزميلاتي لم ننل شهادة البكالوريا، وإن كنا قد تعلمنا من فنون التربية والتهذيب ما تعلمه طلبة مدارس المعلمين العليا حرفيًّا، ولكننا مع ذلك تنقصنا الثقافة العامة، ولهذا لا يمكن مساواتنا بهم، قلتُ: لقد تعلمت من طرق التربية ما لم يتعلمه الرجال، وإذا كان ما ينقصني عنهم هو مرحلة الثقافة العامة، أي نيل شهادة البكالوريا، فإني سأدخلها وسأنجح فيها، حتى لا أترك لوزارة المعارف عذرًا في عدم مساواتي بالرجال.

أتحداك يا مستر دنلوب!

وتواصل (نبوية موسى) حديث الذكريات عن هذا الموضوع، فتقول:

اطلعتُ من ذلك اليوم على منهج البكالوريا، وملأت استمارة دخول امتحان البكالوريا في الميعاد الذي حددته وزارة المعارف، وأرسلتها إلى الوزارة. فضج رجال الوزارة لهذا الحادث، وكان حديثهم في روحاتهم وغدواتهم. واستعظموا على فتاة لم تتعلم في مدرسة ثانوية أن تدخل الامتحان، وهي لم تستعد له، فجاءني مستر دنلوب في مدرسة عباس وبيده استمارة التحاقي بالامتحان، قدَّمها إليَّ وهو يضحك وقال: يبدو لي أنك لم تقرئي منهج البكالوريا، ولو أنك قرأتِ ذلك المنهج، لما أقدمتِ على إرسال طلبك هذا. قلت: كلا لقد قرأته وكدت أنتهي من دراسته. قال: إنكِ واهمة فاستمعي لنصحي واسحبي هذا الطلب ولا ترسليه مرة أخرى، اللهم إلا إذا وعدتني بأنك ستنجحين، قلت: وهل وعدك أحدٌ ممن تقدموا لهذا الامتحان بنجاحه فيه قبل دخوله؟ قال: ولكنك تلميذتي ويهمني أمرك. قلت: إن الكل تلاميذك يا سيدي ولا بد أن يهمك أمرهم

بمقدار ما يهمك أمري. قال: إذن فاعلمي بأنك إذا رسبت فستنحط منـزلتك في نظري. قلت: إني والحمد لله فوق الخادمات مباشرة، ولا تستطيع أنت ولا غيرك أن تعتبرني خادمة، أي إني أقف اليوم على الأرض، وليس في وسعك أن تحفر تحت أقدامي، فمكانتي في التوظف لا تحتمل النقصان. قال: إنك عنيدة، ولكني أكرر لك النصح في أن تسحبي طلبك هذا وأن لا ترسليه إلى الوزارة. ثم خرج دون أن يترك لي وقتًا للإجابة على ما قال. وما كاد يصل إلى الوزارة حتى كان طلبي في إثره!!.

لجنة خاصة لي!:

ضجت الوزارة كلها واعتبروا ذلك حادث العام ولم يعد في الطلبة المتقدمين إلى البكالوريا حديث، إلا أن لهم زميلة من الجنس اللطيف، وقد كانوا يجهلون تلك الزميلة طبعًا، فأخذوا ينقلون عنها ما يشاءون. فاعتبروها من أجمل ذلك الجنس وألطفه، وأنها ما تقدمت إلى ذلك الامتحان إلا لتظهر دلالها وجمالها. وجاء وقت الامتحان وأَعَدَّت لي الوزارة لجنة خاصة في المدرسة.

ونجحت رغم أنف دانلوب!

وآخر أيام الامتحان جاءني مستر دانلوب فقال لي: أتظنين أنك ناجحة؟ قلت: نعم أظن ذلك. قال: حسنًا صدق الله ظنك. وخرج.

وهنا تناولتني الناظرة وأخذت تعتب عليَّ كيف أجيبه بالإيجاب، وماذا يكون موقفي إذا أنا رسبت، فقلتُ لها: إني لم أدَّعِ النبوة ولا الإخبار بما في الغيب، وكل ما قلت له إني أظن أني ناجحة، ولا عيب عليَّ إذا كان

ظني هذا غير صادق، فكثيرًا ما يظن الإنسان غير ما يحدث، ولا حرج عليه فيما يظن.

ظهرت النتيجة وكنتُ من بين الناجحين وترتيبي على ما أعتقد ٤٣ من مائتين. وكان لهذا النبأ وَقْعٌ حسن بين موظفي وزارة المعارف وبين زملائي الطلبة. وكان ذلك سنة ١٩٠٧ ولم يكن لي بالطبع زميلات، ولم تنجح مصرية في امتحان البكالوريا إلا في سنة ١٩٢٨. لهذا كان النبأ عظيمًا، فنشرته الصحف بعناوين ضخمة ببنط كبير، مثل «أول ناجحة من المصريات في البكالوريا» أو «مصرية تفوز بنيل شهادة البكالوريا» أو «تفوق المصريات» ولو أنني إذ ذاك فتحتُ فرنسا، لما كان لاسمي رنة أشد مما كان له على إثر نيل تلك الشهادة العظيمة أي شهادة البكالوريا.

اهتم المصححون بهذا النبأ، ويظهر أنهم خشوا أن يظن أحد أن (نبوية) هذا رجل فأرادوا أن يضعوا على هذا الاسم عنوانًا يمنع الشبهة، فكتبوا (الست نبوية) وأرسلت إلي مدرسة عباس تلغرافًا يهنئون الناظرة بنجاح معلمتها، كما أرسلوا إلى صديقتي العتيدة ناظرة المدرسة السنية تلغرافًا، يهنئونها بنجاح إحدى طالباتها. وهنا نسيت مس جونسون الحقد القديم، ويظهر إنها عطفت عليَّ. وكنا في ذلك الوقت لا ندخل الامتحان الشفوي إلا إذا نجحنا في التحريري.

ظهرت نتيجة التحريري، وجئت للامتحان الشفوي في المدرسة السنية أيضا، وما كاد يقع نظر الناظرة عليَّ حتى ضمتني إلى صدرها وقبلتني قبلات عديدة وشكرتني لأنني رفعت رأسها عاليًا.

شكرًا.. أيها المفتشون

أما المفتشون الذين جاءوا لامتحاني الشفوي، فقد أحضروا لي معهم هدية ثمينة من الكتب الفرنسية. وكنت واثقة بالطبع أني سأنجح في

الامتحان الشفوي، إذ ليس من المعقول أن تتقدم طالبة واحدة في هذا الامتحان وتنجح في التحريري، ثم يذهب الذوق بالممتحنين إلى إسقاطها في الشفوي، لهذا كنت واثقة كل الوثوق من نجاحي في الشفوي.

كنتُ قد تعلمت اللغة الفرنسية في المنزل، ومن الكتب، وكنت أعرف كيف أقرأ، ولكني لم أكن متأكدة أني أفهم تلك اللغة إذا خوطبتُ بها، ولهذا دخلتُ باسمة وقد أعددت هذا الابتسام، لأجيب عليه بكلمات قد حفظتها. وكانت اللغة الفرنسية إضافية لا أساسية.

وتم ما رادته وسألني الممتحن عن سبب ضحكي. فقلت له في شيء من الدعابة: إني أضحك لأني أعلم أنك لا تعلم إلا الفرنسية التي لا أعرف أنا شيئا منها، ولهذا أضحك على كيفية تخاطبنا. قلت ذلك بالفرنسية طبعًا. وقد سُرَّ الرجل بهذا. وحادثني محادثة استطعتُ فهمها، وأعطاني درجة لم أكن أحلم بالحصول عليها.

الفصل السادس

عن الحرية والتمرد

تؤكد (نبوية) في مذكراتها حبها للحرية والاستقلال في العمل، وكان من أكثر المجالات إبرازًا لتمردها على القيود التي تتنافى مع المنطق: هو موقفها من مناهج التعليم، حيث كان أساس التعليم لديها قائمًا على الأخذ «بالمنطق لا بالقواعد». فلم تكن تقبل بما تفرضه عليها وزارة المعارف، دون الأخذ في الاعتبار مدى ملاءمة مناهج الوزارة للعملية التعليمية. فكان أن لجأت إلى تأليف مناهج دراسية خاصة بتلميذاتها، ومن أبرز مواقفها في هذا الصدد هو انتقادها لكتاب «الفوائد الفكرية» لعبد الله باشا فكري، والذي كان يُدرَّس في المدارس الابتدائية، فقامت بتأليف كتاب «ثمرة الحياة في تربية الفتاة» والذي تم تحويله فيما بعد إلى كتاب للمطالعة العربية في مدارس البنات. وفي مقدمة كتاب المطالعة العربية، توضح نبوية موسى أهمية التعليم القائم على الاختيار، لا الأمر والنهي والإجبار، فتقول:

«ولما كنت فتاة أشعر ا تشعر به الفتيات، وأعرف من أين يتأثرن وما يحرك عواطفهن، ألفت هذا الكتاب لتلميذات السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الابتدائية للبنات، وجعلته حاثًا على الآداب، في أسلوب لا يظهر فيه أمر ولا نهي، لأن الإنسان إذا أُمر بشيء فربما ثَقُل عليه عمله، وإن نُهي عن شيء تاقت نفسه إليه.. لذا شرحتُ الأمر الحسن ومدحته، وبينت الشيء القبيح وذممته، وتركت الفتاة تختار لنفسها ما شاءت».

وقد كانت (نبوية موسى) شديدة الانتقاد للسياسة التعليمية حينذاك، وكانت بالتالي كثيرة الخروج على مناهج وزارة المعارف، وهو ما يتضح جليًّا من خلال الجزء الأعمّ من مُذَكّراتها والتي كانت تنشرها تباعًا ضمن صفحة «ذكرياتي» في مجلتها الأسبوعية «الفتاة». وكان مما أثار وزارة المعارف عليها، هو قيامها بنشر سلسلة من المقالات تنتقد فيها سياسة التعليم، وذلك في جريدة الأهرام موقعة باسم مستعار هو «ضمير»، وذلك بعد نقلها من وظيفة ناظرة إلى العمل مفتشة، بهدف التقليل من تأثيرها على العملية التعليمية. ولم تتوقف عن كتابة هذه المقالات إلى حين منحتها الوزارة إجازة مفتوحة بأجر، انتهزتها فرصة لإنشاء مدرسة أهلية «حُرَّة» هي مدرسة «ترقية الفتاة» التي تحولت فيما بعد إلى مدارس «بنات الأشراف» في الإسكندرية والقاهرة.

وللتأكيد على أهمية تعويد الطفل على التصرف بحرية، مما يقوي إرادته وينمي شخصيته، تقول (نبوية موسى) تحت عنوان «تأثير السرور على الصحة»:

«ولعل حريتنا في صغرنا هي التي قوَّت من إرادتنا وجعلتنا- أي أنا وأخي- نبتعد عن اللهو ونكدّ ونعمل فيما نريد، وهذه- على ما أعتقد- هي التربية الاستقلالية التي نصَّ عليها علماء التربية، ولم تقم بها والدتي لعلمها بما ستجنيه منها، ولكن دفعها الجهل والخوف علينا، إلى معاملتنا تلك المعاملة اللينة.

وبهذا نشأنا على الصدق وقوة الإرادة، ولكن هذه التربية لا تصلح في البلاد المستعمرة، التي اعتاد أهلها الاستعباد، فأصبح الرئيس يحتقر مرءوسه، ويهينه لسبب وبلا سبب. فإذا رفض هذه الإهانة، كان عليه أن

يحتمل الذل والفقر والطرد، وهذا هو نفس ما صادفني في حياتي. فقد فشلت فشلاً تامًّا، وسبب ذلك الفشل هو تلك التربية التي اعتدت منها أن لا أحتمل الضيم مهما كان ضئيلاً.

سفوري

لكن لماذا لم تتناول نبوية موسى قضية «السفور والحجاب» التي أثارها المفكر الإصلاحي الكبير «قاسم أمين» وهي من دعاة الحرية؟ وتحت عنوان (سفوري) تجيب في كتابها «تاريخي بقلمي»:

«أردتُ السفور فلم أكتب فيه، مع أني قرأت كتب المرحوم قاسم بك أمين، وأعجبت بها، ولكن العادات لا تغيَّر بالقول. وإذا حاول شخص تغيير قومه بأقوال منمقة، قام عليه القوم واتهموه بما ليس فيه، وهكذا قام المصريون على المرحوم قاسم بك أمين، واتهموه بكل شيء، وقالوا إنه إنما يريد السفور إشباعًا لرغبته في المجون والعربدة.

ولو أني قمتُ فناديت بما نادي به، لاتهمت بما اتهم، بل أمرٌ منه، لهذا عوَّلتُ على أن أدعو إلى السفور بالعمل لا بالقول. وقد كان ملبسي لا يجعل محلاً للشك في استقامتي، وتمسكي بالفضيلة الشرقية، فكشف وجهي وكفِّي كان مطابقًا لما جاء في السُّنة والكتاب! ولهذا لم يستطع أحد أن يمس سمعتي بسوء.

ومن العجيب أنهم كانوا يسمونني حجابية متطرفة، ولا أدري لم كانت تلك التسمية وأنا سافرة الوجه؟ إنهم يظنون السفور مجونًا وفجورًا، ولم يكن ملبسي يساعدهم على أن ينسبوا إليَّ ذلك، بل كانوا يعتقدون أني أكثر الشرقيات محافظة على الآداب الإسلامية. ولهذا لم يقل أحد عني شيئا مع أني كنتُ المصرية الوحيدة التي أسفرت.



قاسم أمين

ألفت كتاب (المرأة والعمل) ١٩٣٩ وتكلمت فيه عن جميع عادات المصريات، ولكني لم أفرد فيه بابًا للسفور والحجاب، بل قلت في مقدمته إني لا أتناول السفور والحجاب في كتابي، لأني لا أرى حجابًا فأبحث فيه، فقرويات مصر سافرات، أما المدنيات فعلى وجههن نقابٌ أبيض شفاف لا يستر من وجوههن إلا الحياء، وهو يزيدهن جمالاً وبهجة، إذ يزيد الوجه بياضًا على بياضه الصناعي، أما الخدود فتظهر تحت النقاب ورديتين يجللهما الندى، لهذا لا معنى للكلام في شيء غير موجود، وسيهتدي الناس فيما بعد إلى حقيقة الأمر. قلت ذلك ليفهمه من يعقل فقط. ومن يعقل من الناس لا ينتقد السفور. أما أغبياء القوم فلم يفهموا من كلامي شيئا، وهذا ما انتظرته، فقد ظلوا يقولون عني إني حجابية متطرفة.

سافرة وأسلّم على الجميع!

ومن غريب ما حدث، أني أقمتُ- عندما فتحت مدرستي «ترقية الفتاة» بالإسكندرية- حفلة مدرسية، كنتُ أستقبل فيها الزائرين سافرة الوجه، وأسلم عليهم وأحييهم وأجلسهم في أماكنهم، وكان بالحفلة مندوب لجريدة وَفْدِيَّة يقدِّر ما لقاسم بك من فضل وعبقرية. وقد أعجبه أن يكون في تلك الحفلة ما يدل على أن غَرْس قاسم قد أثمر، وأن تلك الحفلة كانت أول ثماره. لهذا طلب الرجل أن يلقي كلمة، وسمحت له بها، فقام يمتدح قاسمًا ويثني على همته وذكائه وعبقريته، وفي الأسبوع التالي لتلك الحفلة قرأت في إحدى المجلات الأسبوعية انتقادًا مُرًّا على ما قاله ذلك الكاتب، فقد قالت إنه خرج عن حدود الأدب واللياقة،

في مدرسة بنات هي أَوْلَى بالأدب ونشر الفضيلة، ثم قالت المجلة «إنها تعجب كل العجب كيف تصرح السيدة نبوية موسى الحجابية المتطرفة لهذا الكاتب المجوني بالكلام في حفلتها».

قرأتُ ذلك ودهشت له. فقد كان مندوب تلك المجلة حاضرًا في الحفلة، ورآني وأنا أستقبل الناس سافرة، ومع ذلك يُسمِّيني حجابية متطرفة لأني في نظره لم أكن ماجنة ولا متبرجة. عجبت من هذا المنطق، فرأيت أنه من العبث أن أناقش عقليات كهذه، إذن لابد أن أخاطب أمثال هؤلاء بما يستطيعون أن يفهموه: فكتبت إليه أقول: «إني لستُ مسئولة إلا عما تقوله إحدى تلميذاتي أو ما أقوله أنا شخصيًّا، أما كلام غيري فيسأل عنه قائله. فإن الإنسان لا يسأل إلا عما يقوله هو أو يكتبه، أما أن يأتيه زائر فيطلب الكلمة فيصرح له بها، وهو لا يعلمها، فلا شأن له هو بما قال ذلك الزائر».

ومع أن هذا القول لا يدل على أني أخالف الخطيب فيما قاله، فقد اتخذته تلك المجلة دليلاً ساطعًا على تمسكي الشديد بالحجاب. فقالت في العدد التالي «لقد صدقت السيدة نبوية موسى حُسْنَ ظننا فيها وعابت على الخطيب ما قاله. ونحن نشكر لها تمسكها بالعادات الشرقية ومن أهمها الحجاب».

الابتعاد عن الزَّيف

وهكذا وفرت على نفسي ما كان سينالني من فحش القول إن أنا كتبت في الحجاب، ودعوت إلى السفور. ولكني مع ذلك أعطيت تلميذاتي مثالاً صادقًا للسفور الذي أريده، وهو ظهور المرأة سافرة، ولكن في منظر

يدل على حشمتها ووقارها. فهي تخرج لعملها سافرة، حتى لا يعوقها الحجاب عن حُسْن تأدية ذلك العمل، ولكنها تظهر في ملبسها بمظهر الجد فلا زينة ولا تبرُّج، والوجه كما خلقه الله لا فتنة فيه. وإذا كان الله قد صنع فيه شيئًا من الفتنة فلا شأن لنا فيما صنع، وكان على البشر أن يعودوا إلى الخالق. على أنَّ القرآن لم يأمرنا بالحجاب، بل أمرنا بالابتعاد عن الزينة، فقال سبحانه وتعالى: «وقل للمؤمنات يغضُضْنَ من أبصارهن ويحفظن فُرُوجَهُنَّ ولا يُبدين زينتهنَّ إلا ما ظهر منها وليضربن بِخُمُرِهِنَّ على جُيوبهن....».

فأمر الله بستر الصدر لا بستر الوجه وهو موضع الحلي في الجاهلية.

وقد أمر الدين الإسلامي المرأة أمرًا صريحًا بكشف وجهها في ثلاثة أمور: الحج والخطبة والشهادة، ولم يأمرها مطلقًا بستره، فلا معنى إذًا لستر الوجه وفيه مُضايقة كبيرة لمن يردن هذا العمل.

الفصل السابع

الرائدة التعليمية والتربوية

كانت (نبوية موسى) قد افتتحت مدرستها (بنات الأشراف الابتدائية/ الثانوية) بالقاهرة أولاً، ولما أغلقتها الحكومة لأسباب سياسية، نقلت مدرستها إلى الإسكندرية وكانت مدارسها تحوز دائما خير النتائج علمياً وخلقياً، مما كان يدعو الأسر المحافظة إلى إلحاق بناتها بمدارسها، فاكتسبت بذلك لبنات جنسها جولة النصر على الرجعية، التي طالما وقفت في وجه تعليم البنات، كما قامت بتدريس مادة اللغة العربية للمعلمات الإنجليزيات، وذلك لأنها كانت تمتلك ناصية اللغة الإنجليزية، فضلاً عن أنها معلمة للغة العربية، فكان من اليُسْر عليها أن تتفاهم معهن أكثر من الأساتذة الدراعمة (نسبة إلى كلية دار العلوم) الذين كانوا يتعاملون معهن بالإشارة، وفي كثير من الأحيان كن يفهمن الإشارة خطأً، ولم يكن الأساتذة الدراعمة يفهمونهن.

قضت (نبوية موسى) زمنًا طويلاً من عمرها بمهنة التدريس في الفيوم أولاً، التي تصور في مذاكراتها كيف استقبلها أهلُها نافرين فتقول: «كان أهل الفيوم ينفرون من تعليم البنات، ويعتقدون أن المتعلمة لا أخلاق لها، وإنما تخرج على العادات الشرقية وعلى أخلاق الدين الإسلامي، فلما رأوني أشد تمسكًا بالعادات الشرقية من نسائهم الجاهلات، ظنوا فيَّ الجهل، ولهذا اضطررت أن أزين غرفة مكتبي بشهاداتي، ليعلموا أنني قد بلغت من التعليم قسطًا كبيرًا، ووضعوا ثقتهم في المدرسة».

مدرسة ترقية الفتاة

ثم قامت (نبوية موسى) مع بعض السيدات اللاتي تعرفت عليهن في الحركة الوطنية في عام ١٩١٩ بإنشاء (مدرسة ترقية الفتاة في الإسكندرية) بوساطة جمع مبالغ من المال، وقصرها على إنشاء مدرسة أهلية للبنات، سُمِّيت باسم الجمعية التي كانت تضم هؤلاء النسوة، وهي (جمعية ترقية الفتاة) وخضعت إدارتها للسيدة نبوية موسى التي كان قد امتدَّ باعُها كثيرًا في طرائق التعليم ووسائله.

ومع زيادة مسيرة الحركة الوطنية عام ١٩١٩ نقلها الإنجليز من الإسكندرية إلى القاهرة في قطار خاص، بحجة خطورتها على مصالح الاستعمار، وهي المعروفة بمناوأتها لسياسة دانلوب وأذنابه.

وكانت لجنة السيدات الوفديات التي انتخبتها جموع النساء إبان الثورة- وعلى رأسها السيدة هدى شعراوي- تقود الحركة النسائية في ذلك الوقت، وقد دُعيت هدى شعراوي في ١٩٢٠- على إثر ذيوع شهرتها في أنحاء العالم كزعيمة للنساء المصريات- إلى المؤتمر النسائي الدولي لتمثل مصر فيه، وسافر وفدٌ مكوَّن من السيدة هدى شعراوي والآنسة سيزا نبراوي والآنسة نبوية موسى، إلى روما للاشتراك في مؤتمر الاتحاد النسائي، وقد اعترفت هدى شعراوي بصوتهن المؤثر في المباحثات التي دعت الغرب لأن يعترف بصوت النساء المصريات ووعيهن، وفي المؤتمرات الدولية التي كانت تُعقد للبحث في شئون المرأة؛ كانت (نبوية موسى) تعلن عن آرائها بصراحة غير مقيدة، إلا بضميرها وإخلاصها.



الوفد المصري المشارك في المؤتمر النسائي
هدى شعراوي، سيزا نبراوي، نبوية موسى

هذه مطالبنا أيها الاحتلال

وأثناء الاحتلال الاستعماري، كانت المطالب التعليمية التي نادت بها كل من (باحثة البادية ونبوية موسى) مطالب نسوية ووطنية، وعندما طالب الاتحاد النسائي المصري بتعليم النساء في العشرينات والثلاثينات، استمرّت هذه المطالب وقُدِّمَتْ للدولة المصرية المستقلة بدلاً من السلطات الاستعمارية، وبالإضافة إلى المدارس الثانوية، طالبت رائداتُ الحركة النسوية بإتاحة الفرص أمام النساء للالتحاق بالجامعة والمعاهد العليا، وبعد سنوات قليلة افتتحت (نبوية موسى) في القاهرة مدرسة ثانوية أخرى للبنات سَمَّتها (مدرسة بنات الأشراف)، وللمرة الثانية جابهتها معوقات من كبار موظفي وزارة المعارف العدوانيين، ثم واجهت التهديد بهدم مبنى المدرسة، فلجأت إلى حسين سري باشا وزير الأشغال لمساعدتها. وقد عَلَّمت مدرستا نبوية موسى الخاصتين اللتان تمتعتا بسمعة التفوق الأكاديمي والانضباط الصارم أجيالاً من النساء في الإسكندرية والقاهرة.

وفي عام ١٩٢٦ فصلتها وزارة المعارف فصلاً تعسفيًا، فرفعت دعوى ضدها، ودافعت عن نفسها وكسبت القضية، ونالت حقوقها مع تعويض ومعاش، واعتقلت في أثناء الحرب العالمية الثانية، لخلاف في الرأي مع الحكومة القائمة وقتذاك».

عاشت (نبوية موسى) عمرًا طويلاً قضت أكثره في الدفاع عن قضية تعليم المرأة، ولها آثار بينة في مجال تعليم المرأة، بل يمكن أن يقال إنها قضت حياتها في كفاح ضد الرجعية والجهل التعليمي بشتى أنواعه.

المرأة والعمل

وضعت (نبوية موسى) كتاباً تحت عنوان «المرأة والعمل» أعادت طبعه عام ١٩٣٩ وعالجت في فصوله: المرأة في جميع الأمم، واتباع الأمة لها في الرقي والانحطاط، والفرق بين الرجل والمرأة، واستعداد كل منهما للعمل، وكيف تربى الفتاة المصرية، والتعليم الأهلي، واحتياج مصر إلى طبيبات ومعلمات وخياطات وغيرهن، والتدبير المنزلي والتطريز، وتناولت بالبحث تأثير الكتب والروايات في الأخلاق، وتناولت موضوعات الأفراح والمهور والزار، وفي هذه الفصول لخصت (نبوية موسى) آراءها في تعليم الفتاة وتربيتها ومدى اشتراكها في العمل إلى جانب الرجل، وهي- في آرائها في الكتاب- تجمع بين المحافظة التقليدية وبين العصرية التقدمية.

وتظهر الرسالة التربوية الإصلاحية عند نبوية موسى في إنتاجها الفكري، وفي سيرتها الذاتية على حد سواء، ففي هذا الكتاب «المرأة والعمل ١٩٣٩» تحاول نبوية إثبات أمرين في منتهى الأهمية:

- الأول: أن المرأة كالرجل عقلاً وذكاء، وكأنها ترد على طلعت حرب عندما قال بأن المرأة أقل من الرجل إدراكًا وحسًّا (محمد طلعت حرب: فصل الخطاب في المرأة والحجاب- القاهرة- مطبعة الترقي- ١٩٠٩).
- الثاني: أن المرأة تحتاج للعمل، ومن المهم أن تُعَدّ لجميع الصنائع، ليس فقط المنزلي أو المنحط منها، وتقول:

«فلا يغرنا ما نراه من الفرق بين عقل الرجل والمرأة، ما دامت تربيتها مختلفة، ولنسع إلى تعليمهما تعليمًا واحدًا، لنعرف أنهما كباقي الحيوانات لا يختلفان إلا في أمور تناسلية محصورة».

ثم أيّدت بشدّة قضية عمل المرأة، انطلاقًا من أن المرأة تحتاج لكسب قُوتها بنفسها، لأن الواقع دائما ما يختلف عن القول النظري الذي يسلم بأن المرأة لها من يعولها (أب فـ«زوج» فـ«ولد»)، وتتساءل:

«هل أخذنا على الموت عهدًا، فأغلظ لنا الإيمان أنه لا يخطف روح مسلم إلا إذا تزوجت ابنته، ثم أمنًا الدهر بعد ذلك فعلمنا أنه لا يغدر بفتاة، فتطلق بعد الزواج وتصبح لا عائل لها، أو يموت الزوج وأولادها صغار يحتاجون إلى من يعولهم».

القرية لا تعرف الحجاب

وهي تعقد المقارنات بين حال المرأة الريفية البسيطة، وحال المرأة في المدينة لتبرز أن المرأة في الريف تخرج إلى العمل، ولا ترتدي الحجاب المعروف في المدن، ومع ذلك فلا أحد يرفض عملها ولا أحد يتهمها بالسفور، وذلك لأن الرجال هناك يعلمون أن للنساء أعمالاً يقمن بها خارج المنازل، أما المدنيون فيتوهمون ألا عمل للمرأة خارج منـزلها، فإذا رأوها في الطريق اعتقدوا أنها خرجت للعب، وساعدهم تبرجها على ذلك الاعتقاد فيتحككون بها، فالعمل وسيلة لقمع الفساد لا لإكثاره.

وتؤيد أيضا مبدأ عمل المرأة، والحض على كفاحها جنبًا إلى جنب الرجل فتقول في الكتاب نفسه:

«إن الأمة لا تنجح إلا إذا كانت نشيطة، ولا تكون نشيطة ما دام نصفها أشل لا حياة فيه، فهو بمعزل عن أعمال الدنيا، فإن لم نعمل نحن النساء كان نصف الأمة المصرية مهملاً، لا ذكر له، مع أننا في أشد الحاجة إلى

العمل، ولا سبيل إلى أن نعمل ونحفظ الثروة المصرية للأمة، إلا إذا تربينا وتعلمنا مختلف العلوم والصنائع اللائقة بنا».

وتقول: «يسوءني أن أرى موارد العلم الحقيقية لا تزال عسيرة الورود على النساء، وأن الصنائع الحية النافعة محجورة عليهن إلى الآن، نعم يسوءني أن أرى المصرية وراء النساء علمًا وصناعة، وهي في مقدمتهن ذكاء واستعدادًا، التعليم الأول دون التعليم العالي لا تأتي منه فائدة تذكر، ولقد قيل في المثل الإنجليزي: المعرفة القليلة أضر من الجهل، إنّا إذا لم نعلم الفتاة إلا ما يتعلق بأعمال المنزل، فقد أعدمنا مواهبها العقلية ونزلنا بها من درجتها إلى منزل الخادمات».

الفصل الثامن

مختارات من مذكرات نبوية موسى

سجلت «نبوية موسى» بعض ما شهدته من تجارب شخصية في شتى مراحل حياتها، منذ كانت طفلة، حتى أصبحت وكيلة لوزارة المعارف العمومية، هذه التجارب التي أظهرت ملامح شخصية هذه الرائدة الكبيرة، والتي أخلصت لرسالتها التربوية والتعليمية إخلاصًا جعلها تنسى حقوقها الطبيعية كامرأة، من حقها أن تؤسس عائلة، مثل جميع النساء، لدرجة أنها اضطرت أن تلجأ إلى بعض الحيل، لتهرب من فكرة الزواج.

لقد تفرَّغت هذه السيدة العظيمة للقضية التي كانت تؤرقها منذ كانت فتاة صغيرة، وهي حق البنت المصرية في الوصول إلى أعلى المراحل التعليمية، وألا تكتفي بالمرحلة الابتدائية كما كان سائدًا في ذلك الوقت، وهو ما نجحت في تحقيقه بنفسها.

إننا إذ نقدم بعض ما يحتويه كتابها «تاريخي بقلمي»، فإنما لكي نضع القارئ أمام فصول من حياة غير عادية، لولاها لما نعمت الفتاة المصرية الآن بما تتمتع به من حقوق تعليمية لا تقف عند حدّ.

ولعل المتأمل في تفاصيل هذه المذكرات، يكتشف أهم ما تميزت به رائدتنا العظيمة، وهو روح الإصرار على تحقيق ما تراه صحيحًا، حتى لو اضطرها الأمر إلى الدخول في سجالات ومناوشات وتحديات، بل ربما

دفعت ثمنًا غاليًا لعدم تراجعها عمّا تؤمن به، وهي في ذلك مثل أصحاب الأفكار الإصلاحية الكبرى في تاريخ البشرية، الذين لم يتخلوا- مطلقًا- عن قناعاتهم الفكرية والعلمية والاجتماعية، ولولاهم ما تقدمت الحياة الإنسانية خطوة على طريق المعرفة الحقيقية، والتي هي بدورها المفتاح الذهبي للحضارة.

إننا ندعوك أيها القارئ العزيز إلى تأمل هذه المواقف، واستخلاص الدروس المستفادة من تفاصيلها الكثيرة، وذلك لتكتمل معرفتك بجوانب متعددة لهذه الشخصية الفذّة والتي أسهمت بنصيب كبير وملحوظ في بناء النهضة التعليمية المصرية.

الشيخ حمزة فتح الله وكيف أثار الطالبات عليّ؟

كنتُ غريبة في المدرسة السّنية، كما قدمّت، ولم أمكث فيها أكثر من ثلاثة أيام، حتى زارنا الشيخ حمزة فتح الله، ومع أني كنت قد دخلت في السنة الرابعة عشرة من عُمري، فإني لم أكن أكبر سنًّا عن تلميذات السنة الثالثة إذ ذاك، بل كنت مثل كثير منهن وأصغر من بعضهن. ولما كنتُ قصيرة القامة فقد جلست في الصف الأول من الفصل، ودخل الشيخ حمزة فتح الله، وكان لسوء الحظ أن كانت وقفته إلى جانبي، فطلب مني أن أقرأ فقرأت وسرَّ الأستاذ سرورًا عظيمًا، لأني- كما قدمت- كنت أقرأ قراءة صحيحة، مع أنني كنت أكتب خطًا رديئًا، لا كرداءة الخطوط العادية، بل خط فتاة لم تعتد الكتابة، أي خط طفلة لا تعرف كيف تكتب. وسُرّ الأستاذ من قراءتي وأعجب بها أيّما إعجاب، ثم

طلب من غيري أن تقرأ، وهاله ما بيني وبينها من الفرق العظيم، فغضب وأمرها بالجلوس، وقال إنها متأخرة جدًا بالنسبة للتلميذة الأولى، ثم سأل غيرها فكان غضبه أشد، وهكذا ثار الأستاذ وسأل المعلم عن سبب ضعف التلميذات إلى هذا الحد. وهنا مال عليه المعلم وقال همسًا: هؤلاء هن طالبات السنة الثالثة، وهن لا يستطعن أن يقرأن أحسن من هذا، أما تلك التلميذة التي قرأت في الأول فهي جديدة لم تدخل المدرسة إلا هذا العام، وهي- على ما يظهر- أقوى منهن بكثير. وهنا نظر الشيخ حمزة فتح الله وقال: أرجو يا ابنتي أن تساعدي زملاتك على حسن القراءة والصرف، وكل البنات يغرن ويزدن في الحادث العظيم في نظرهن، إذ كيف يطلب المفتش من تلميذة مثلهن أن تعلمهن، وهي- فضلاً عن هذا- غريبة عن المدرسة وليست من تلميذاتها، وهذا ما اعتبرته التلميذات عارًا لا يمحي.

وما كادت الحصة تنتهي حتى خرجن إلى الفناء وشكون أمرهن إلى باقي تلميذات المدرسة، وكان في المدرسة طالبة عُرفت بالصراحة كما عرفت بالشجاعة والإقدام فكانت بطلة المدرسة أو بلطجيتها، وكانت إذا مرت بتلميذتين تتشاجران قضت بينهما بالعدل وضربت الظالمة أو أنبتها، مع أنها كانت لا تزال في السنة الثانية، فذهبت التلميذات إليها وشكون لها ما فعله المفتش، فجاءت ووقفت أمامي وكنت جالسة، فارتعدت فرائصي خوفًا، وأيقنتُ أني مضروبة لا محالة، وقالت لي بلهجة الغضب والتأنيب: كيف تسمحين لنفسك أن تعلمي زميلاتك وهن أقدم منك في المدرسة؟ فنظرتُ إليها في هدوء وقلت لها: وهل قمت بتعليمهن أو طلبتُ إليهن ذلك؟ وما ذنبي أنا إذا سمح الشيخ حمزة فتح الله لنفسه أن يقول ذلك السخف الذي لا يعنيني أمره؟ فنظرت إليَّ في شيء من التردد

ثم قالت: صَدَقت، ليس هذا بخطئك. وانصرفَتْ من عندي، ويظهر أنها وبخت تلميذات السنة الثالثة على ثورتهن ضدي، فهدأن ولكنهن أطلقن عليَّ لقب زوجة الشيخ حمزة فتح الله.

وكنتُ لا أعرف كلمة في اللغة الإنجليزية، وكنت أجلس في الفصل هادئة لا أكاد أتحرك، وكان بعض المعلمات الإنجليزيات يعتقدن أن التلميذة الهادئة جدًّا خاملة العقل لا تفهم شيئًا، ولو أن معلمتنا في ذلك الوقت اعتقدت هذا لقُضِيَ عليَّ بعدم النجاح، ولكن هذه المعلمة كانت على عكس زميلاتها في هذا التفكير، فتخيلت أني أذكى فتاة في المدرسة، وأخذت تساعدني بكل ما تستطيع، فكانت تأمر التلميذات أن يُترجمن لي كل ما تقوله رغمًا عنهن، ورأيت أنهن يقُمن بمناورات ضدِّي في حصة اللغة الإنجليزية، فأردتُ أن أردهن إلى الصواب فأخذت أضايقهن في حصة اللغة العربية. فكنتُ أهزأ بمن تخطئ وأصحح لها خطأها، فتتألم وتغضب، فيغضب عليها المعلم ويعاقبها، وهكذا ضايقتهن مضايقة عظيمة فجئن إليَّ وطلبن أن تضع الحرب بيننا أوزارها، قلت: حسنًا إذا كُنتن على استعداد لمساعدتي في حصص اللغة الإنجليزية. فقَبِلْنَ منِّي ذلك الشرط، واتفقنا من ذلك اليوم على أن أساعدهن في اللغة العربية ولو بسكوتي، وساعدنني هن في اللغة الإنجليزية بترجمة ما لا أفهم، وهكذا انتظمت حالي بذلك الصلح قليلاً، ولكنه كلفني كثيرًا، إذ كان أغلبهن يطلبن مني أن أُملي عليهم موضوع الإنشاء الذي يكلفهن المعلم كتابته، وعلى هذا كنتُ أكتب موضوع الإنشاء أربع أو خمس مرات حسب الطلب، فكنتُ أُملي على كل من طلبت مني ذلك موضوعًا يغاير في ألفاظه وأفكاره موضوع الأخرى حتى لا يظن المعلم أن إحداهن نقلت من الأخرى.

وفي نظير ذلك كُنَّ يترجمن لي كل ما تقوله المعلمة الإنجليزية، وكنا -لسوء الحظ- نتلقى علوم الجغرافية والتدبير المنزلي والأحياء باللغة الإنجليزية التي لم أكن أعرف منها شيئًا، فكنتُ أجد صعوبة عظيمة في فهم تلك العلوم، ولكن المعلمة كانت تشجعني كل التشجيع، ولهذا استطعتُ أن أتغلب على تلك الصعوبات.

وحدث في يوم أن كانت تشرح لنا المدرسة جغرافية مصر الطبيعية على الخريطة، وكانت الأطالس أمامنا، والظاهر أن الخريطة كانت ضيقة لا تمثل مكان واحة سيوة، وقالت المعلمة للتلميذات أن ينظرن جيدًا إلى الأطلس، وكانت الواحة موجودة عليه، وأن يُشِرْنَ إلى مكانها على الخريطة. وقامت التلميذات الواحدة بعد الأخرى تشير إلى الموضع الذي كانت تظنه موضع واحة سيوة. ولما كانت التلميذات متجهات إلى وضع واحة سيوة على الخريطة مع أن محلَّها نفسه لم يكن موجودًا على تلك الخريطة فقد أخطأن جميعُهن، وطلبت المعلمة منهن ترجمة السؤال لي، فذهبتُ لأشير إلى مكان الواحة، فوضعت الإشارة على الحائط لا على الخريطة، وظن التلميذات ذلك غباء مني، فضحكن ضحكات عالية ملؤها الشماتة، ونظرت إليهن المعلمة في دهشة، حتى إذا انتهين من الضحك أخبرتهن ببرود الإنجليز المعروف أنهن قد أخطأن، ولم يعرف مكان واحة سيوة بالضبط إلا تلك التلميذة التي سَخِرْنَ منها، وكانت دهشتُهن عظيمة لذلك، وابتدأن من ذلك اليوم يملن لي ويحترمنني.

الشيخة رمانة

كانت السنة الثالثة أصعب سني دراستي، لأني كنت غريبة عن نُظم المدارس وترتيباتها، ومع هذا فقد نجحت وكنت الأولى في امتحان النقل

إلى السنة الرابعة، وكان عدد طالبات السنة الرابعة على ما أتذكر ٦ طالبات وامتحنا امتحان الشهادة الابتدائية في مدرسة عباس، لأن المدرسة السّنية كانت في بناء قديم غير بنائها الحالي، وكان على مقربة من بنائها المعروف الآن، فقد كان في حارة صغيرة في شارع المبتديان.

وتشاء القدرة الإلهية أن يكون امتحان الحساب في ذلك العام- وهو عام ١٩٠٣ - أصعب امتحانات الحساب التي رأيتها حتى الآن، ولهذا رسب في الحساب فقط ٦٠٪ من عدد المتقدمين لذلك الامتحان، خرجنا من امتحان الحساب وكل الطالبات يبكين، وكان من بين طالبات المدرسة السنية طالبة عرفت بالطيش وعدم تقدير الأمور فخرجت تضحك وتتظاهر بالنجاح، فكانت جميع الطالبات باكيات وهذه الطالبة ضاحكة ساخرة، أما أنا فكنت على الحياد لا بكاء ولا سرور، فدنت مني ضابطة مدرسة عباس وقالت: أراكِ ليست كزميلاتك في البكاء ولا تشاطرين تلكم الزميلة الأخرى سرورها واغتباطها فما شأنك؟ قلتُ: أظن أني ناجحة فلا معني للبكاء، أما السرور والابتهاج فليس من المروءة أن أضحك وزميلاتي باكيات. قالت: وهل أنتِ واثقة من نجاحك؟ قلت نعم. قالت: لا تغترّي، فقد رسبت أولى طالباتنا في العام الماضي. قلت: لابد يا سيدتي أنها كانت ضعيفة في الحساب. قالت: نعم هي كذلك. قلتُ: الحساب لا صاحب له فقد تكون التلميذة مجتهدة في كل شيء تذاكره مذاكرة جيدة فتتقدم على زميلاتها، ولكنها ينقُصها الذكاء فلا تستطيع النجاح في الحساب، أما أنا فمحال أن أرسب وأنا أولى الفصل في أغلب المواد وفي الحساب أيضا. قالت إذن سنرى.

انتهى الامتحان وخرجت التلميذات وأغلبهن واثقات من عدم النجاح، ولا أدري كيف تأثرتُ بآرائهن فساورتني الشكوك في نجاحي بعد أن كنتُ متأكِّدة منه، وكانت والدتي شديدة الثقة في منجِّمة تدعى الشيخة رمانة، وكانت تقول إن كلامها لا ينزل الأرض حسب تعبيرها هي، وكان أخي - رحمه الله - على عكس رأيها، وهو الذي كنت أسير مع آرائه، فأردت أن أشرح لوالدتي بطريقة عملية أن هذه المنجِّمة لا تستطيع معرفة الماضي لا المستقبل، فطلبت أن أذهب معها إلى تلك المنجمة لأعرف منها الغيب في مستقبلي القريب، وهو النجاح في امتحان الشهادة الابتدائية، فغيرت ملابسي ولبست ملاءة وبرقعًا أسود، وذهبت إليها مع والدتي فوجدت حولها عددًا كبيرًا من النساء يغلب على ظني أنهن يساعدنها على كشف مستقبل الزبائن، وإن كن يتظاهرن بأنهن جميعهن زائرات جئن للكشف عن مستقبلهن.

جلستُ على مقربة من الشيخة وتقدم منها امرأتان، وأعطت الشيخة إحداهما منديلها لتكشف عن مستقبلها، فقالت لها في لهجة الطفلة العابثة المترددة (مش واوه؟) وهي جملة ترسلها بين التأكيد والاستفهام. فقالت الزائرة: لا يا سيدتي مش واوه، فقالت الشيخة (أنا أقول مش واوه) قالت ذلك بلهجة التأكيد. ثم قالت بلهجتها الأولى (مش حاجة ضايعة؟) فقالت الزائرة: نعم يا سيدتي شيء مسروق. قالت الشيخة: (أنا أقول حاجة ضايعه)، ثم عادت إلى ترددها تقول (مش ذهب؟) قالت الزائرة: يا ليتها كانت ذهبًا. ومعلوم أن الماس أغلى من الذهب، ولهذا قالت الشيخة بلهجة التأكيد (أنا أقول ألماظة). فنظرت المرأة إلى زميلتها وقالت في سذاجة: لقد عرفت الشيء المسروق. وتشجعت المنجمة وقالت: سرقها

شخص يأكل معك. وبالطبع لا يخلو الحال من أن يكون مع كل سيدة بعض أشخاص يأكلون معها إما من الخدم أو من الأقارب، ولكن المرأة لسذاجتها تأكدت أن الشيخة قد عرفت ذلك بعلمها، فقالت لزميلتها بصوت مسموع: لا يأكل معي إلا نفيسة، وزادت جرأة الشيخة فقالت: إن نفيسة هي السارقة. وهنا قالت المرأة في دهشة: لقد عرفت المنجمة حتى اسم السارقة، فتركت المكان وهي تعتقد أن المنجِّمة قد عرفت كل شيء، حتى اسم السارقة، ونسيت أنها هي التي ذكرت اسم نفيسة بصوت سمعته المنجمة كما سمعته أنا، وقد كنتُ أكثر بعدًا منها عن المنجِّمة، وهنا علمت كيف تعمل السذاجة والجهل لصالح هؤلاء المنجمات.

تقدمتُ إلى الشيخة بعد هذه الزائرة فقالت لي جملتها المعروفة (مش واوه؟ مش حاجة ضايعة؟) وأنا أجيبها بالنفي، ثم قالت لي بعد هذا: (مش زواج؟) وخشيت إن أنا وافقتها على هذا لأظهر لوالدتي جهلها أن تظن والدتي أني قد أضمرت في نفسي أن أسأل الشيخة عن الزواج، وقد كنت أود أن تعلم والدتي بجلاء كذب تلك النجمة فالتفتّ إلى والدتي، وقلت لها في شيء من الدهشة زواج؟ طيب ما أنا متزوجة، وانتهزت المنجمة تلك الفرصة وأسرعت قائلة: أنا أعرف أنك متزوِّجة، وسأردُّ لك زوجك. فنظرتُ إلى والدتي قائلة: هيا بنا إلى المنزل ننتظر الزوج عند قدومه إلينا. قلتُ ذلك وانتصبتُ واقفة، وقامت والدتي معي، فتعالت أصوات النساء اللائي يحطن بالمنجمة قائلات: حذار أيتها الفتاة من أن تسخري بالشيخة وإلا أصابك ضررٌ بليغ. قلت: وماذا فعلت؟ إني سأذهب مسرعة إلى المنزل لأنتظر زوجي مادامت الشيخة سترده إليّ كما

وعَدَتْ، وخرجتُ أنا ووالدتي بعد أن تغير اعتقادُها في الشيخة، لأنها رأت كيف ظنتني متزوجة وأنا لا أزال فتاة.

ظهرت نتيجة الامتحان ولم ينجح من المدرسة السنية إلا أنا وطالبة أخرى اسمها عائشة صبحي تنتمي إلى أسرة مجيدة، وهي الآن حرم حضرة صاحب السعادة إسماعيل باشا رمزي، وكنت أنا الأولى بالنسبة للبنات، وكانت هي بعدي، وبيني وبينها عدد من البنين ولست أتذكر ترتيبنا بالضبط.

ومن مُدهشات الأحلام أني حلمت قبل ظهور هذه النتيجة بأني أسير في طريق بلدتنا الريفية بسرعة، وأني دخلت منزلنا في الريف ونظرت ورائي فرأيت زميلتي صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزي آتية من بعيد، فقلتُ لها: لقد تأخرت يا عائشة. قالت: لا بأس. فلم يمر أحدٌ من التلميذات سوانا، وهكذا ظهرت النتيجة فلم يمر أحد سوانا.

وعلى ذكْر زميلتي صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزي، أقول: إنها من فُضْليات المصريات ومن أولياتهن علمًا وأخلاقًا وذكاء، وإن كان اسمها لم يظهر كثيرًا في المجتمعات، ولعل ذلك ناشئ من تمسكها بالعادات الشرقية، فقد خرجت من أسرة كريمة، ودخلت أسرة مثلها في الكرم من أسر المصريين، لهذا ظلت بعيدة عن المجتمعات، لم يذكر اسمها في السياسة إلا مرة واحدة إذ خطبت أمام حضرة صاحب الرفعة النحاس باشا بعد خروجه من الوزارة في عيد ١٣ نوفمبر ١٩٣٨، وهكذا تخفي المنازل الأسر العريقة دُرَرًا لو ظهرت في المجتمع لأضاءته بذكائها الحاد المتوقد وأكسبته بهاء وروعة.

شاب ريفي

نجحت في الشهادة الابتدائية في يونيه سنة ١٩٠٣، كما قدّمت، ولم ينجح في البلاد المصرية كلها غيري في ذلك العام إلا ثلاث فتيات وأنا رابعتهن: تلميذتان من المدرسة السنية واثنتان من مدرسة عباس، ولا غرابة بعد هذا أن يقوم شُبَّانُ قريتنا وأن يقعدوا، ابتهاجًا بهذا النبأ وتقديرًا لتلك العبقرية في نظرهم إذ ذاك، أي العبقرية التي استطاعت بها فتاة من قريتهم أن تنجح في الشهادة الابتدائية. مع أن الناس الآن لا يعلقون أهمية ما لمن ينجحن في الشهادات العالية، فسبحان مغير الأحوال. كنتُ في القرية حسب عادتي عندما ظهرت نتيجة الابتدائية، فتوافد الناس على دارنا أفواجًا للتهنئة وإظهار إعجابهم بذلك النبوغ النادر كما كانوا يسمونه، وعلى أثر ذلك أرسل إليَّ أحد مشايخ القرية كريمته- وهي في سني- لتتعلم من معاشرتي المدنية، وظلت عندي مدة شهر، كنا نخيط معًا بعض الملابس. وفي أحد الأيام جاءتني «ناعسة» وهو اسم تلك الفتاة وعلى وجهها شيء من علامات القلق، وما كادت تخلو بي حتى قدمت إليَّ خطابًا من أخيها، يقول لي فيه إنه أحبَّني دون أن يراني كما يحب الناس الجنة دون أن يروها.

ساءتني جرأة هذه الفتاة وهالني استهتار أخيها بالآداب في تلك القرية الصغيرة التي رأسُ مال أهلها الدين والكمال، وخشيت إن أنا أطلعتُ شقيقي على الخطاب أن يغضب لهذا وأن يضرب ذلك الشاب ويصبح ذكْري أحدوثة بين أهل القرية جميعًا، فكظمتُ غيظي من الفتاة وأخيها، ومزَّقتُ الخطاب إربًا إربًا حتى لا يستطيع أحد قراءته، ووضعته في الظرف، ولم يكن الظرف معنونًا، وأعطيته لها، وقلت لها: لقد ساءني

جدًّا أن يرسل أخوك هذا الخطاب وأن تكوني أيتها الصديقة الرسول، ولهذا أرجوك أن تذهبي الآن وأن تخبريه بأني لا أعرف شيئًا عن الحب، وأني أحتقر كل من يعرفه، كما أرجو أن لا تعودي إلى دارنا مرة أخرى.

خرجت الفتاةُ تتعثر في أذيال الخجل والأسف وهي لا تكاد تقوى على جَرِّ قدميها؛ ومضت أيام ولم تعد «ناعسة» إلى دارنا، فسأل أخي ووالدتي عن السبب، فقلت لهما: لقد تم تمدينها ولم تعد في حاجة إليّ. وفي ذات يوم جاءني أخي وقال لي في شيء من الحدة: كيف عرفك فلان؟ وذكر اسم ذلك الشاب. وخشيتُ في تلك اللحظة أن يكون ذلك الشابُّ قد أغضبه رفضي لصداقته فاختلق عليَّ من الأكاذيب ما يُغضب أخي، ولكني تمهّلت وقلت لأخي: ومن أين عرفت أنه يعرفني؟ قال: لقد كنتُ أمس في فرح فلان، وكان هذا الشاب يجلس أمامي، ولكنه لم يشعر بوجودي وسمعته يتحدث مع بعض شبان القرية، فقال أحدهم: إن فتيات المدن فاسدات الأخلاق ماجنات، وهنا انبرى له ذلك الشاب يكذبه، ويقول إن كريمة موسى أفندي محمد– وهي من فتيات المدن ومن أولى الناجحات في الابتدائية هذا العام– على جانب عظيم من الأخلاق والكمال، فقال له ذلك الشاب المنتقد: وما يدريك فقد تكون كباقي فتيات المدن ماجنة فاسدة ولكنا لا نعرف من أمرها شيئًا؟ فقال أخو ناعسة: لقد خبرتها بنفسي، وأعلم أنها أكثر النساء عصمة واستقامة. وهنا تبسَّمتُ وقلت لأخي: وهل كلامه هذا يدل على أنه يعرفني؟ قال: لقد قال إنه خبر ذلك بنفسه. قلت: هذا تعبير يدل على تأكده مما يقول، وهل نسيت أن ناعسة أخته بقيت معي مدة تخالطني وأخالطها وعرفت من أخلاقي ما لا يعرفه غيرها؟ وأظن أن هذا ما أراده أخوها بقوله إنه خبر ذلك بنفسه، ولم يشأ

أن يذكر اسم أخته، فزالت آثارُ الغضب عن ملامح أخي، وقال: صدقت لقد نسيت مسألة «ناعسة».

وهكذا كان ذلك الشابُّ الريفي مثال الشمم والصدق، مع أن غيره من رجال المدن الفاسدين ينتقمون أشد الانتقام ممن تتمسك بأهداب الفضيلة وتخيب مطامعهم الفاسدة فيما أرادوه منها. نعم يتفننون في الانتقام من الفتاة، لا لسبب سوى أنها امتنعت عن إجابة مطالبهم، فيدبرون لها كل وسائل الكيد ويدفعهم الغيظ إلى تسويء سُمْعتها ووصفها بما هي بريئة منه؛ لا لسبب سوى حقدهم عليها لتمسكها بالفضيلة والعصمة.

أما القرويون فيمجدون الفضيلة ولا يسمحون لأحد أن يفخر بالرذيلة والفساد من سكر وعربدة وغيرها كما يفعل المدنيون، ومن يفعل ذلك منهم فإنما يعرض نفسه لسخط أهل القرية عامة واحتقارهم له وبعدهم عنه، فلا تسمع من القرويين عادة من يروي لك في شيء من الفخر والزهو رواية سُكْره وعربدته، وهو لو فعل ذلك لما أصغى أحد إليه، ولما كان جوابُه على ما يقوله إلا الضرب، وهكذا لا تجد للفضيلة أنصارًا إلا في وسط الريف الساذج البريء.

نهضة تعليم البنات في مصر

في يونية سنة ١٩٠١ نجح في الشهادة الابتدائية لأول مرة ثلاثة تلميذات، هن السيدات: المرحومة ملكة حفني ناصف، وفيكتوريا عوض الآن (مدام هنرى بك بدير مدير مخازن وزارة الصحة) والجرا بلنتر. وفي أكتوبر سنة ١٩٠١ فتح قسم المعلمات في السنية ودخل فيه هؤلاء الثلاث في السنة الأولى. وفي يونية سنة ١٩٠٣ نجح في امتحان دبلوم معلمات السنية لأول

مرة أيضا طالبتان هما المرحومة السيدة ملكة حفني ناصف والسيدة الفاضلة فيكتوريا عوض. أما الثالثة فرسبت في الامتحان، وفي أكتوبر سنة ١٩٠٣ عُيّن كل من المرحومة السيدة ملكة حفني ناصف والسيدة فيكتوريا عوض معلمة بالمدرسة السنية.

وفي نفس هذا التاريخ دخلتُ أنا السنة الأولى من قسم معلمات السنية، أي في أكتوبر سنة ١٩٠٣. وكان قسم المعلمات يشمل ثلاث سنوات: الأولى والثانية والثالثة، ومجموع تلميذات هذه السنوات الثلاث كان بالتحديد ١٤ طالبة. بالسنة الثالثة أربع طالبات، هي السيدات: الجرابلنتر التي رسبت في أول امتحان لدبلوم معلمات السنية، وآسيا عبد الفتاح (الآن حرم محمد بك حمدي مرتضي وكيل مديرية المنوفية)، وتوحيدة صبحي (الآن حرم حضرة صاحب العزة محمد بك شفيع)، وعائشة الشيمي. وبالسنة الثانية خمس طالبات هن: المرحومتان السيدة فاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمي وحرم عبد المجيد باشا عمر، والمرحومة السيدة نور الهدى عبد الله، والسيدات: زينب بهجت، وزينب فؤاد، وهانم صالح. أما السنة الأولى فكان بها خمس طالبات أيضا هن السيدات عائشة صبحي (الآن حرم إسماعيل باشا رمزي)، وبهية حسونة، ونور حسن، وأديل دياب، ونبوية موسى. على أنه لم ينجح في دبلوم معلمات السنية من هؤلاء الطالبات الأربع عشرة إلا ثمان فقط. اثنتان نجحتا في سنة ١٩٠٤ وهما السيدتان: آسيا عبد الفتاح، وتوحيدة صبحي، على أن الأخيرة منهما لم تعمل في التعليم، واثنتان في سنة ١٩٠٥ هما السيدتان نور الهدي عبد الله وزينب بهجت، والأخيرة منهما لم تعمل في التعليم أيضًا، وفي سنة ١٩٠٦ نجح جميع طالبات السنة الأولى اللائي ذكرتهن الآن، ما عدا

السيدة عائشة صبحي مع أنها كانت من المتقدمات إذ كانت الثانية دائمًا، ولكنها تركت المدرسة في نهاية السنة الثانية، وقد كانت أمهر طالبات السنية في اللغة الإنجليزية، حتى أنها كانت تكتب في الإنشاء الإنجليزي ما يزيد عن أربع صفحات فلا تخطئ فيها مرة واحدة.

ومن العجيب أن هذا الفصل الذي كنتُ أنا إحدى طالباته نجح كله في دبلوم معلمات السنية واشتغل كله أيضًا بالتعليم ما عدا السيدة عائشة صبحي كما قدمت. هذا هو مجمل بسيط لنهضة تعليم البنات في مصر. ولست أغالي إذا قلت إن قسم المعلمات في المدرسة السنية في ذلك الحين كان أقوى بكثير في اللغة الإنجليزية، على الخصوص من الحاصلين على شهادة كلية الآداب أو المعلمين العليا الآن، وكان ذلك يرجع لنشاط مس كارتر ودقتها في العمل. لقد خرجت المرحومة فاطمة عمر من المدرسة السنية في سنة ١٩٠٤ دون أن تتم دراستها، لأسباب ربما شرحتها فيما بعد، وقد تركت التعليم وتزوجت ورُزقت أطفالاً انشغلت بحبهم انشغالاً عجيبًا مدهشًا، وكان المَظْنُون بعد هذا كله أن تنسى كل شيء عن التعليم، ولكنها كانت مع هذا تتكلم باللغة الإنجليزية كإحدى بناتها وتكتب باللغة العربية بأسلوب أدق وأرقى من أسلوب النابهين من طلبة التخصص في اللغة العربية بالأزهر الشريف أو طلبة دار العلوم العليا، وكذلك السيدة عائشة صبحي أو حضرة صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزي فهي تجيد اللغتين الإنجليزية والعربية إجادة يدهش لها من سمعها تتكلم اللغة الإنجليزية أو قرأ ما تكتبه باللغة العربية، هذا مع عنايتها التامة بأبنائها ومنزلها.

ومن لطائف ما أتذكره، أن المعلمات الإنجليزيات كن يخالطننا مخالطة الندِّ للند، ويلعبن معنا، وكنا- مع احترامنا وحبنا لهن- نترجم أسماءهن على سبيل الفكاهة والتسلية، وكان لأغلبهن أسماء لها معناها، فكنا نقول عن مس كارتر مثلاً الست عربجي، وعن مس هاني برن مدموزيل عسل محروق، ومس ليتش الآنسة دودة، ومس بورد السيدة لوح، وكان سرورنا بمخالطة المعلمات الإنجليزيات عظيمًا، خصوصا عندما كنا نمزح معهن فلا يُغضبهن ذلك المزاح، فكنا ننادي مس بورد عن بعد: يا سيدة لوح، وكانت تعرف أن هذا اسمها فتضحك ونضحك. ومن هذه المخالطة اكتسبنا قوة في اللغة الإنجليزية يندر أن توجد في طلبة العصر الحالي، وكانت الوزارة هي التي تقوم بامتحانات النقل في المدرسة السنية، ولهذا كانت كل معلمة تجتهد في تقوية تلميذاتها في المادة التي تدرسها خشية أن يظهر ضعفها في التدريس أمام الوزارة في آخر العام.

وكانت الوزارة تُعْنَى بامتحاننا عناية تامة، فتمتحننا تحريريًا وشفويًا، ويقوم بذلك الامتحان أكبر رجال الوزارة مقامًا وسنًّا.

وكان من مفتشي وزارة المعارف المستر بويد كاربنتر، فجاء ليمتحننا في اللغة الإنجليزية شفويًّا، وكنتُ قد سمعت باسمه، فأخذ يناقشني في أفكار المصريين، فقال إنهم يهتمون بالتعليم ويهملون الصناعة، وأردتُ أن أنتصر لبلدي، فقلت: إنهم على حق يا سيدي، فإنه لا صناعة بلا تعليم، والعلم هو الذي يرقى بالصناعات، أما صناعة الجهلاء فلا قيمة لها. قال: ولكن المصريين يحتقرون الصناعة وأربابها، قلت: إنهم على حق ما دام أرباب الصناعة الآن جهلاء، ألستَ ترَى يا سيدي أنه من العار أن تكون الفتاة ابنة نجار مثلاً- قلت ذلك وضغطت على كلمة نجار ومعناها باللغة

الإنجليزية كاربنتر وهو اسم المفتش. ضغطت على الكلمة في شيء من الدعابة- وفهم المفتش أني أريد التلميح باسمه فضحك وقال: أشكرك، ثم أعطاني الدرجة النهائية.

وكان الشيخ شريف من أكبر مفتشي اللغة العربية في ذلك الوقت يمتحننا في اللغة العربية شفويًا، وكان رجلاً شديدًا في امتحانه، لا يكف عن الأسئلة إلا إذا عجزت الطالبة عن الإجابة، ولما كان أول اسمي نونًا فقد كان يوضع في آخر كشف الامتحانات، وأخذ الأستاذ يناقش زميلاتي الواحدة بعد الأخرى ولا ينتهي من امتحان إحداهن إلا إذا عجزت وأجابته بجملة «لا أعرف» وجاء دوري فأخذ يناقشني وأجيبه ويظهر أنه ضايقه هذا وأراد أن يحملني على الاعتراف بعدم المعرفة، وكان في يده صحيفة المؤيد لصاحبها السيد على يوسف باشا وبها أربعة أبيات للمرحوم إسماعيل باشا صبري، ولم أكن قرأتُ تلك الصحيفة، وكانت الأبياتُ حديثة لم تدوَّن في كتب الأدب، ومع هذا فقد قرأها لي الأستاذ ثم سألني عن قائلها، وكانت أسئلته ببطء وبنغمة مخصوصة فقال ما نصه (أنت. تعرفي. مين. اللي. قال. هذه الأبيات؟) وعرفت غرضه فتحاملت عليه وأجبته بنفس نغمته وترتيبه فقلت: (أنا. مش. ضروري. أعرف مين. اللي. قال. هذه الأبيات).

وما كاد الأستاذ يسمع هذا التهكم حتى رفع رأسه وشعر بخطئه في السؤال، فنظر إليّ وقال: متشكر ثم وضع لي الدرجة النهائية.

وعلى ذكْر هذا الامتحان أقول: إننا كنا في الشهادة الابتدائية نحسن التخاطب باللغة الإنجليزية أكثر من طلبة البكالوريا الآن. وأذكر أنه في امتحان الابتدائية كان يمتحننى في اللغة الإنجليزية رجل وسيدة، فقال لي الرجل: ما اسم السيدة التي تخيط ملابسك؟ ولم أتذكر كلمة خياطة

في ذلك الوقت، وأردت أن أشغله بإجابة أخرى حتى أتذكر الكلمة، فقلت له: إني أنا التي أخيط ملابسي. قال: وماذا نسميك إذن؟ قلت: وهل تستطيع أن تسميني إلا تلميذة سواء في ذلك أخطت ملابسي أم لم أخطها؟ قال: افرضي أنك ترسلين ملابسك لسيدة لخياطتها، فما اسمها؟ قلت: إن هذا الفرض يحتاج إلى المال الذي ليس معي شيء منه، ولهذا لا أستطيع أن أفرضه، واغتاظت السيدة من تلاعُبي هذا، وقالت لي بحدة: إنها هي ترسل ملابسها إلى سيدة لخياطتها فما اسم هذه السيدة؟ وهنا تذكرت الكلمة، فضحكت ضحكة الظافر وقلتها لها، على أن كلام السيدة كان فيه ما ذكرني بالكلمة المطلوبة، وأراد الرجل أن يداعبني أو يضايقني بعض الشيء، فقال أتحسنين الغناء؟ قلتُ: كلا. قال: هل تعرفين الرقص؟ قلتُ: لا. قال فهل تلعبين على البيانو؟ وساءني أن تكون إجابتي كلها بالنفي، وهي كلمة لا تدل على مقدرة الطالبة في اللغة الإنجليزية، فقلت له: لا تسألني هذه الأسئلة، فإني لم أخلق لمثل هذه الحياة، قال: فبماذا تتسلين إذن؟ قلتُ: أحل بعض المسائل الحسابية. فضحك الرجل وقال: مخلوق عجيب! وفي اليوم التالي كان امتحان الحساب وكان فيه مسألة عقلية صعبة لم تحلها تلميذة واحدة في اللجنة، فجاءني المفتش وكان مراقبًا في الحساب، وطلب مني أن أريه نتيجة تلك المسألة، فلما رآها قال: صدقت فيما قلته أمس في حبك للحساب.

نَـزَق الشباب

كان بقسم المعلمات– كما قدَّمت– ١٤ طالبة، ولم يكن في مصر قاطبة من نال الشهادة الابتدائية إلا هؤلاء الطالبات الأربع عشرة، وكانت الضابطات اللائي يقمن بمباشرة نظام المدرسة لم ينلن شهادات، فكانت

الطالبات يتكبرن عليهن لأنهن يعتقدن أنهن أعلم من ضابطاتهن وأن بأيديهن برهانًا قاطعًا على صدق هذا الرأي أولا وهو الشهادة الابتدائية التي لم ينلها أحد غيرهن.

وحدث أن عاقبت إحدى الضابطات طالبة من هؤلاء الفطاحل، فقام قسم المعلمات لذلك وقعد وأرغى وأزبد وشمخ بأنفه واستكبر، وقَرَّ رأيُ الطالبات جميعهن على الاحتجاج على ذلك العمل الذي لا يليق بكرامة فتاة نالت الشهادة الابتدائية، وكانت السيدة آسيا عبد الفتاح أو صاحبة العصمة حرم محمد بك حمدي مرتضى أولى السنة الثالثة، أي أولى قسم المعلمات، فكتبت احتجاجًا وطلبت من جميع الطالبات إمضاءه والذهاب معها إلى الناظرة لتقديم ذلك الاحتجاج، وكنتُ أنا في السنة الأولى من قسم المعلمات، ولكني سخرت من ذلك العمل ورفضت أن أنضم إليهن في مثل هذا الاحتجاج السخيف، وقلت إنه لابد للمدرسة من ضابطات يحافظن على النظام، وما دام ليس في مصر من يحمل الابتدائية فلابد من وجود ضابطات لا يحملنها، ولابد من وجوب احترامهن ليستطعن القيام بعملهن، وعارضتني الطالبات في آرائي هذه، وقلن إنهن لا يحتجن إلى من يشرف على نظامهن لأنهن حاصلات على الشهادة ولأن المشرفات جاهلات، وصمَّمتُ على رأيي، وأخيرًا ذهبت الطالبات إلى السيدة ملكة حفني وشكون إليها عصياني وعدم تضامني معهن في احتجاجهن، فطلبت مني أن لا أخالف الإجماع وأن أنزل على رأي الأكثرية من زميلاتي، فقلتُ لها: إني أقبل ذلك على شرط أن يتعهد هؤلاء الزميلات بالوقوف في وجه الناظرة إن هي غضبت من ذلك الاحتجاج، وعاقبتنا جميعًا فقبلت هذا الشرط، وتعهدت الطالبات بأنهن يتركن المدرسة إن أوقعت الناظرة بهن عقابًا لهذا الاحتجاج.

وهكذا ذهبنا جميعًا نقدم الاحتجاج إلى حضرة الناظرة وكان اسمها مس جون ستون أو (حنا حجر) كما كنا نترجمه، وما كاد يقع نظرها علينا حتى غضبت وأمرتنا بالانصراف، فانصرفنا واستدعت الأولى وهي السيدة آسيا عبد الفتاح وأخبرتها أننا جميعًا معاقبات، وأنه يجب علينا أن نلزم حجرة النوم من الساعة الرابعة بعد الظهر وأن تكتب كل منا الجملة الآتية، وتعلقها على سريرها وهي: (يجب على الطالبات إطاعة الضابطات). وجاءتنا السيدة آسيا بالورق والدواة، تطلب منا الكتابة وتبلغنا العقاب وثارت ثائرتي ورفضت أن أكتب وطلبت من السيدة ملكة حفني أن تبر بوعدها لي، فأرغمت الطالبات على مخالفة ذلك الأمر والذهاب إلى الناظرة للاحتجاج عليه، وارتدت كل منا ملابسها، وذهبنا إلى الناظرة لنخبرها بأننا لا نستطيع تنفيذ هذا العقاب، وأننا مصممات على ترك المدرسة إذا هي صممت على عقابها هذا.

دخلنا مكتب الناظرة فاستقبلتنا بشدتها، وسألتنا ماذا نريد؟ فلم يستطع أحد أن يجيبها، وكررت السؤال مرارًا وقابلنا ذلك السؤال بالصمت مرارًا أيضا، وخشيت أنا أن تأمرنا بالخروج وتضاعف لنا العقاب، فقلت لها لقد جئنا نخبرك أننا لا نستحق هذا العقاب لأننا لم نفعل شيئا، وإن كنا قد احتججنا على عقاب زميلة لنا فيما كان يستوجب ذلك عقابنا، بل كان عليك أن تشرحي لنا أننا مخطئات، وأن للضابطات حق عقاب تلك الزميلة، ولو أنك فعلت هذا لخرجنا من عندك راضيات، أما الآن فنحن لا نقبل البقاء في مدرسة نعاقب فيها بلا ذنب ولا جريرة، وساء الناظرة أن أتكلم أنا مع أني من السنة الأولى وما كان لمثلي أن يتكلم ومعه طالبات السنة الثالثة اللائي هن أحق مني بالكلام، ولهذا ظنت أني أنا التي دفعت

الطالبات إلى هذا الاحتجاج، وأرادت أن تنهي المسألة فقالت وإذا عفوت عنكن، فهل تعدنني أنكن لا تعدن إلى مثل هذا الطيش؟ قلت لك ذلك، قالت لا بأس فاذهبن إلى شأنكن.

تحمّلت الناظرة مني منذ ذلك اليوم، وأرادت أن تنتقم مني منفردة، وبعد ذلك الحادث بأسبوع مرضت معلمة الجغرافية، فحلت محلها الناظرة في إعطائنا حصة الجغرافية فدخلت الفصل وأمرتنا بإخراج الأطالس وكتب الجغرافية، وكنت أنا آخر من أخرجت كتابها فقالت لي بلهجة التأنيب: أبشرك بأنك سترسبين في آخر العام. فقلت: وأنا أؤكد لك أن هذه البشري غير صحيحة، ومحال أن أرسب وأنا أولى هذه الفرقة، قالت أتعارضينني فيما أقول؟ قلت: ولم لا!؟ وهل من المنطق أن أرسب أنا لا لسبب سوى أني تأخرت ثانية أو ثانيتين في إخراج كتابي؟ قالت: أرجوك أن تتركي الفصل الآن وتذهبي إلى عنبر نومك، وأن لا تعودي إلى الفصل إلا إذا اعتذرت إليّ. فتركتُ الفصل غاضبة وذهبت إلى عنبر النوم، وبقيت به يومين دون أن أعتذر إليها، وكنت أقضي كل وقتي في المطالعة، ويئست هي من اعتذاري، وجاءتني في عنبر النوم متظاهرة أنها نسيت وجودي فيه، وأظهرت دهشتها عند رؤيتي ثم سلمت عليّ، فقمتُ لها وسلمت عليها، وجلست على السرير وأمرتني بالجلوس إلى جانبها، وقالت: لِمَ لَم تعتذري إليَّ الآن؟ قلت: لم أفعل ما يوجب الاعتذار فإني على يقين أني لن أرسب، وهذا ما قلته لك فهل في ذلك من بأس؟ وهل تمنع الفتاة من أن تقول ما تعتقد ما دام ليس فيه ما يضرّ بغيرها؟ قالت: لقد صدقت، وإني أعتبر ذلك منك اعتذارًا فهيا إلى فصلك. وسرت معها وهي ممسكة بيدي إلى أو وصلنا إلى باب الفصل فدخلته.

وقد ترك هذا الحادث وسابقه في نفسها أثرًا عظيمًا، وأرادت أن تنتقم مني، فكتبت إلى الوزارة تقريرًا تقول فيه إن نبوية موسى متأخرة جدًا خصوصًا في اللغتين العربية والإنجليزية والحساب. أما اللغة الإنجليزية فقد كنت متأخرة فيها ولكني لا أدري لم اختارت هاتين المادتين اللتين اشتهرتُ أنا بالتفوق فيهما، ولعلها أرادت بذلك أن تترك في نفس المفتشين أني ضعيفة في اللغتين، فإذا خجلت أو تلعثمت في إحداهما وقت الامتحان الشفوي، كان ذلك باعثًا لهم إلى عدم إنجاحي في الامتحان الشفوي.

وكان مكتب الناظرة في الفناء، وشاء الحظ أن أعثر على ورقة تطير في الفناء بقرب باب الناظرة، وإذا بها مسودة ذلك التقرير، وقد دهشت عند قراءتها، وكاد اليأس يقضي عليّ لولا أني اعتزمتُ المثابرة والجد، وضاعفتُ جهودي في اللغة الإنجليزية لأكذّب ما ادعته في تقريرها، فاجتهدت في ذلك العام اجتهادًا لم أقم به من قبل، وأجرت هي امتحان ثلاثة الشهور الأولى، فكنت الأولى، وساءها ذلك، فجاءت تؤنب الفصل جميعه، وتقول إن هذا الفصل أبلد فصل في المدرسة، مع العلم أن فصل السنة الأولى - كما قدّمتُ - كان هو الفصل الوحيد الذي لم يرسب منه أحد، إذ نجح في امتحان الدبلوم من السنة الثالثة طالبتان من أربع، ومن السنة الثانية طالبتان من خمس، أما من فصل السنة الأولى فقد تخرج منه أربع معلمات من خمس طالبات، أو بعبارة أخرى من أربع طالبات، لأن الطالبة الخامسة وهي من المتقدمات لم ترسب، ولكنها تركت المدرسة، ومع هذا فقد زعمت الناظرة أن فصل السنة الأولى هو أبلد الفصول الثلاثة بدليل أن الأولى فيه لم تتغير، مع أن الأولى في باقي الفصول تتغير من امتحان لآخر، وكانت تريد بذلك الكلام دفع زميلاتي إلى العمل، حتى لا أكون أنا الأولى في امتحان ثلاثة الشهور الثانية.

وفي امتحان ثلاثة الشهور الثانية أرادت أن تزحزحني عن مكاني، وعلمت أنها لا تستطيع شيئًا في تغيير الدرجات التحريرية، فعمدت إلى الامتحان العملي للتربية أي فن التعليم فحضرته بنفسها ووضعت هي الدرجات فأعطتني ٤٠ درجة من ١٠٠، وأعطت لكل من زميلاتي فوق التسعين، وبهذا اعتقدت أن هذا الفرق العظيم في درجات التربية العملية سينـزل بي عن مكانتي، ودفعني اضطهادها هذا إلى مضاعفة جهودي في الامتحان التحريري. وظهرت النتيجة وجاءت لتقرأها علينا، وقبل أن تبتدئ في القراءة قالت إني آسفة أشد الأسف، فكملت لها جملتها بسرعة قائلة (لأن نبوية موسى لا تزال الأولى)، فنظرت إليّ وقالت: نعم هو ذلك ما آسف له وما أوبخ زميلاتك عليه، لأنهن لو اجتهدن لما استطعت أنت المحافظة على مكانتك في كل امتحان.

دخلنا امتحان النقل بعد هذا وقد قام به المفتشون، وكنت أولى فرقتي، وأرسلت الوزارة تقريرًا إلى المدرسة تقول فيه: لقد برهنت الطالبة نبوية موسى على أنها أولى قسم المعلمات جميعه في أغلب المواد خصوصًا في اللغتين العربية والإنجليزية والحساب، وكان هذا ردًّا خالصًا على تقرير الناظرة.

عزة النفس (تنقلب ذنبًا)

ذكرت في ذكرياتي السابقة كيف كانت مظاهرة الطالبات ضد الضابطة التي عاقبت إحداهن- سببًا في خلق عداء بيني وبين الناظرة لم يكن لي ذنب فيه، وكأن هذا الدرس لم يفدني كثيرًا فلم ألبث أن وقعت في خطأ غيره.

اعتاد معلم اللغة العربية أن يتركنا واقفات عند بدء حصته فلا يأمرنا بالجلوس إلا بعد خمس دقائق أو ست، وفي أثناء ذلك يكون هو مشغولاً بالكتابة في كراسة تحضيره، ويظهر لي أن الرجل لم يكن يعد درسه في كراسة التحضير قبل دخوله الفصل، فهو يتركنا واقفات إلى أن ينتهي من إعداد درسه، حتى إذا دخلت الناظرة عليه لا تلاحظ أننا جالسات بينما يكتب هو مذكرة الدرس أمامنا.

ساء ذلك زميلاتي لأنهن اعتبرنه إهانة لا مبرر لها، خصوصًا لطالبات حصلن على الشهادة الابتدائية في الوقت الذي كانت فيه تلك الشهادة في نظر الناس أغلى من الدبلومات.

ساءهن ذلك، وشكون إليَّ أمرهن وطلبن مني أن أكلم المعلم في ذلك لأنهن لا يستطعن أن يعاتبنه خشية أن يثور عليهن. أما أنا فلي عنده مكانة خاصة أستطيع معها عتابه. هذا ما قالته زميلاتي، وإن كنت أنا شخصيًّا لم أقرهن عليه، كما أني لم أكن متألمة من وقوفي ٥ دقائق، ولكنهن ألححن عليَّ في الطلب، فقبلت منهن ذلك، وقلت لهن: سآمركن بالجلوس عند دخوله. فأطعنني وإذا أمركن بالوقوف فإياكن أن تفعلن ذلك.

دخلنا الفصل على هذا الاتفاق، ودخل المعلم فقمنا له، ثم جلس ليكتب في كراسة تحضيره حسب عادته، فأمرت أنا زميلاتي بالجلوس بصوت مسموع وجلست معهن، وتنبه هو لذلك، فغضب وأمرنا في حدة بالوقوف، فوقفت الطالبات وبقيت أنا جالسة، فأمرهن بالجلوس وأمرني بالوقوف، فلم أقف. وقلت إني لم أفعل ما يستحق العقاب، وإن الطالبات لم يكن معاقبات وليس للمعلم أن يعاقب الطالبات بلا ذنب ولا جريرة، ولهذا اعتبرت أن مجرد انشغاله بالكتابة هو الذي منعه من أن

يأمرهن بالجلوس، وبما أني أولى هذه الفرقة فقد رأيت من واجبي أن آمر التلميذات بالجلوس بالنيابة عنه فلا داعي إذا للغضب مما فعلت. ولهذا لا أرى معنى لعقابي بالوقوف.

غضب المعلم لذلك، ولكنه كظم غيظه وسكت، وتجنبني بعد ذلك فلم يكلمني إطلاقًا ولم يسألني، ولم يكن ذلك مما يغضبني بل كنت أُسَرّ من أن أستمع إلى المعلم وهو يناقش الطالبات دون أن أدخل أنا في ذلك النقاش.

لهذا مضى عليَّ بعض الوقت دون أن يكلمني ودون أن أتألم من ذلك الحرمان، وكانت زميلتي عائشة صبحي تجلس إلى جانبي، وكانت مؤدبة خجولة على جانب عظيم من الآداب الشرقية، شديدة الحياء مع ذكائها وتوقد قريحتها، فكان إذا سألها نظر إليها فتخجلها نظراته إلى حد يجعلها ترتبك فتردد الكلمة (يا أختي) في شيء من الحيرة والتردد، وزاد ذلك منها مرة إلى حد ضايقني فقلت لها: ما هذا؟ هل تريدين أن نحفظ منك هذه الكلمة؟ أرجوك إذا كنت تعرفين الجواب أن تدلي به وإلا فاجلسي.

وهنا قال المعلم لعائشة: أرأيت أنك لم تعجبي نبوية؟ وساءني ذلك منه، فقلت له: كلا إني راضية عنها كل الرضاء، وأنت الذي لا تعجبني، لا هي، وساءه ذلك، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئًا، واشتد الجفاء بيني وبينه، وسأل زميلتي في يوم آخر عن وزن الفعل (آثر)، وارتبكت كعادتها فهمستُ إليها قائلة إنه على وزن أفعل، وقالت هي الكلمة بعدي، فقال لها المعلم في شيء من الغضب: لقد كذبت أنت ومن قالت لك هذا. فقلت له: وهل إذا كان ما قلته خطأ يعد ذلك كذبًا أم مجرد خطأ؟ قال: إن الكذب أن يقول الإنسان ما ليس صحيحًا، فهو كذب. قلت: كلا إن الكذب أن

يقول الإنسان شيئا غير صحيح وهو يعلم عدم صحته، أما إذا كان لا يعلم ذلك فهو مخطئ، وأصر المعلم على رأيه، فقلت له: وهل إذا اتضح أن هذا الفعل ليس على وزن فاعل كما تعتقد حضرتك يكون ذلك كذبًا من جانبك؟ قال: نعم. قلت: إذن هو ليس على وزن فاعل بدليل أن مضارعه يؤثر، وقد جاء في القرآن (وتؤثرون الحياة الدنيا) ولو أن ذلك الفعل على وزن فاعل لكان مضارعه يؤاثر، فخجل المعلم ولم يستطع جوابًا.

وتصادف أن زارنا في تلك المدة الشيخ حمزة فتح الله، وقرأ موضوعًا إنشائيًا لإحدى زميلاتي فوجد فيه كلمة (كون) بدلاً من كان، فأخذ يعنف الزميلة ويسألها من أين أتت بذلك الفعل (كون)، وأخيرًا تدخلتُ في الموضوع أنا، وقلت له: جاءت به من كلام معلمنا. فهو لا يزال طوال الوقت يقول لنا إن (كان) أصلها (كون) ولا بأس أن تذكر هي الأصل وتترك الفرع ما دام المعلم لم يعلمنا شيئا غير هذا. فضحك الشيخ حمزة فتح الله، وخجل المعلم، ورأي أن خصامه لي لا ينجم عنه إلا تلك المواقف الحرجة التي يقفها من وقت إلى آخر، فأراد أن يصالحني، وكان بالمدرسة معلم آخر هو الشيخ أحمد إبراهيم بك، وكيل مدرسة الحقوق الآن وكنت أحترمه، لفضله ووقاره، فطلب منه أن يصالحني ففعل، وانتهت تلك المشكلة التي أوقعني فيها غدر زميلاتي وخروجهن عن العهود التي اتفقن عليها معي، ومن بعد هذه الحادثة لم أتفق معهن على شيء مهما طلبن مني ذلك.

وعلى ذكر الشيخ أحمد إبراهيم بك، أقول إني كنت أحترمه احترامًا يدفعني إلى طاعته مهما كانت الظروف، وقد درّس لنا اللغة العربية في السنتين الثانية والثالثة، فتصادف يومًا أن أعطانا موضوعًا إنشائيًا عن فوائد الصوم، وقال لنا: إن من فوائده تحسين الصحة. فعارضته أنا في ذلك وقلت:

إني أومن بكل فوائده الأدبية والدينية، أما أن نصوم لتصحَّ أجسامُنا فهو ما لا أستطيع أن أومن به، لأن الغربيين- وهم قوم مسيحيون- لا يصومون رمضان، ومع ذلك فهم أصح أجسامًا منا، ولو أن الصيام كان للصحة لجاز لنا أن نمتنع عن الطعام في أوقات معقولة، أي نأكل في الصباح ثم في المساء، أما أن نمتنع عن الأكل النهار كله مهما طال ولا نأكل إلا في الليل فأمر لا أظنه يفيد الصحة في شيء. وأَصَرَّ الأستاذ على رأيه، وأصررتُ أنا على رأيي، وضايقه ذلك مني لأمرين: أولهما أنه كان رجلاً فاضلاً يريد أن يغرس في نفوس طالباته أصول الدين وفضائله، وثانيهما: أن المدرسة كانت لا تسمح لنا بتلقي الدرس على أستاذ إلا بحضور مشرفة، وكانت تلك المشرفة أجنبية. وظن الأستاذ أنها تفهم اللغة العربية فساءه أن تسمع مني أن المسيحيين أصح منا أجسامًا وأن صيام رمضان قد يؤثر في صحتنا، فغضب وقال لي: الكلمة يقولها أجنبي تزعزع عقيدتك في دينك؟ ورأيت أن الرجل على حق في شدة ميله إلى تهذب طالباته، فلم يغضبني غضبه بل اجتهدت في إرضائه، وإن كنت لم أغير رأيي فيما ذهبت إليه من عدم فائدة الصوم الصحية، وأخيرًا اصطلحنا، وأظنه لا يزال يذكر تلك الحادثة إلى الآن، على أن الأمر الذي أغضبه وهو تخيله أن تلك المشرفة كانت تفهم ما نقول كان غير صحيح، لأنها كانت سيدة يونانية لا تعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، وكان جلوسُها معنا لا قيمة له من الوجهة الأدبية الصحيحة، إذ كان يستطيع المعلم أن يقول لنا ما يشاء وأن نجيبه نحن بما نشاء دون أن تفهم تلك المشرفة شيئا مما نقول، فوجودها كان كالعدم خصوصًا وأنها كانت تتسلَّى أثناء وجودها معنا بالتطريز، فكانت تنهمك فيه انهماكًا يمنعها أن ترى شيئا مما نفعل، فكانت تلك المشرفة تجلس معنا

كحجر أصم لا تسمع ولا ترى، وكأنَّ جلوسها لا فائدة منه، إلا أنه كان يغضب ذلك الأستاذ الفاضل ويؤلمه أشد الإيلام، لأنه كان يعتبر ذلك عدم ثقة به، وقد كان- وهو الحريص على الأخلاق والآداب في كل حركاته وسكناته وفي كل كلمة تخرج من فمه- مثال النِّزاهة والكمال في كل شيء، ولم يكن بالطبع يحتاج إلى إشراف أحد عليه.

الغش في الامتحانات

كنتُ أكره الغش في الامتحانات، فلم أحاوله، ولم أساعد طالبة أخرى عليه مهما كانت الظروف، وكانت الامتحانات في المدرسة السنية تُعمل في صالة متسعة جدًا يجلس فيها طالبات قسم المعلمات وتلميذات القسم الابتدائي، فكانوا يرتبون تلميذة من قسم المعلمات، وعلى يمينها تلميذة من السنة الأولى الابتدائية، وعلى يسارها أخرى من السنة الثالثة الابتدائية، وأمامها إحدى تلميذات السنة الثانية الابتدائية مثلاً، وخلفها تلميذة من السنة الرابعة الابتدائية، وهكذا، فكانت طالبات قسم المعلمات يساعدن تلميذات القسم الابتدائي إذا هن طلبن المساعدة، أما أنا فلم أكن أساعد واحدة منهن إطلاقًا، فكانت التلميذة التي يقضي عليها سوء الحظ بأن تجلس إلى جانبي تخرج أول يوم ساخطة متذمرة تشكو حالها لكل من يصادفها، قائلة: أمري إلى الله في هذا الامتحان فقد جلست إلى جانب أبلة نبوية.

كنتُ- كما قدَّمتُ- أكره الغش، وكنا نتلقى الحساب على معلمة إنجليزية لم تكن تشرح لنا المسائل، بل كان يبدو لي أنها هي نفسها لا تفهمها، فكانت تكتب المسألة على السبورة ثم تطلب منا حلها، فإذا

عجزت الطالبات عن ذلك قامت هي بكتابة الحل على السبورة دون شرح أو مناقشة، فتنقله الطالبات حرفًا بحرف دون أن يفهمن منه شيئا. ومن الغريب أنها لم تكن تختار إلا المسائل العقلية الصعبة جدًّا، وعلى ذلك لم تستفد الطالبات منها شيئا في ذلك العام.

واعتادت المعلمة أن تعطينا يوم السبت من كل أسبوع ١٠ مسائل في كراسة خاصة تحوي حوالي ٩٦ صفحة لنحلها كواجب منْزلي ثم تأخذ منا هذه الكراسة يوم الخميس وتردُّها إلينا مُصحَّحة يوم السبت وهكذا.

ولما كانت الطالباتُ لا يفهمن في تلك المادة شيئًا، وكنتُ أنا مَيَّالة إلى ذلك النوع من المسائل، فقد كُنّ ينتظرن حتى أنتهي أنا من حلها ثم ينقلن ذلك الحل منّي دون أن يعرفن عنه شيئًا، وكنتُ في العادة أنتهي من حل تلك المسائل في مساء السبت نفسه لشدَّة ميلي إليها، فكان لديهن من الوقت ما يكفي لنقلها على مهل.

كانت زميلتي السيدة عائشة صبحي قد تركت المدرسة السنية في نهاية السنة الثانية، ونقلنا إلى السنة الثالثة ولم تكن هي معي، فضايقني ذلك، لأني كنتُ أتنافس معها لذكائها واجتهادها، فلمَّا خرجَتْ لم أعد أجد في بقية الزميلات من أهتم بمنافستها، فشعرتُ بشيء من الملل والسأمة، ونظرتُ إلى زميلاتي في شيء من السخرية، وأردت أن أنصحهن حتى يمتنعن عن نقل الحساب، فقلتُ لهن إني مستعدة أن أشرح لهن تلك المسائل حتى يستطعن حلها فيستفدن بدلاً من أن ينْقُشْنَها دون فهم أو معرفة. ساء زميلاتي ذلك القول مني وشعرن بسخريتي بهن، فثرن عليَّ وقلن إنهن لا ينقلن مني وإني مغرورة بنفسي وهذا ما يدفعني إلى اتهامهن بذلك. قلتُ: حسنًا فسأحلُّ هذه المسائل وإني أحذركن أن تمسها إحداكن

وإلا فعلتُ بكُنَّ ما لا تُحْمَدُ عُقباه. فقُلْنَ: ستعلمين أننا لا ننقل منك شيئا، وعليك إن ضبطت إحدانا متلبِّسة بجريمتها أن تفعلي بها ما تريدين.

أردتُ أن أوقعهنَّ في شَرَك لا يستطعن التخلص منه، وأن أسجل عليهنَّ الغش بطريقة عملية صحيحة، فحللتُ المسائل بشكل مدهش لا يتصوَّره عقل، إذ كنت أنظر في المسألة دون أن أقرأها ثم أضرب أيَّ عدد وقع نظري عليه في عدد آخر، أي أضع بينهما علامة الضرب وأضع حال ضرب من خيالي وقد يكون أصغر من أحد العددين أو أقسم عددًا على الآخر، فيكون خارجُ القسمة أكبر من المقسوم نفسه، وهكذا وضعتُ في تلك الحلول من التخريف والسخف ما لا يُقرُّه عقل، وبعد أن انتهيت من ذلك وضعتُ الكراسة في قمطر كان مُعَدًّا لذلك في نهاية الفصل، وحذَّرتُ زميلاتي من أن يمسسن الكراس، وتغافلت في الأيام التالية، وكنتُ أخرج من الفصل كثيرًا وقت المذاكرة لأعطيهن فرصة الغش، وما جاء يوم الأربعاء إلا وقد نقل جميعُهن تلك الحلول الجنونية السخيفة، وفي مساء الأربعاء أخذتُ الكراسة وانتزعت منها الأوراق التي كتبتُ فيها تلك الحلول، وحللتُ المسائل حلاًّ صحيحًا مقبولاً، وحرصتُ أن لا أترك الكراسة في الفصل بعد هذا حتى تُضطر من لم تكن نقلت في الماضي أن تنقل من كراسة زميلة أخرى سبقتها إلى ذلك النقل. وفي يوم الخميس سلَّمنا الكراسات إلى المعلمة.

دخلت المعلمةُ الفصل يوم السبت عابسةً مضطربة، لأنها غضبت من تلك الحلول التي لا يُبرِّرها عقل، وعجبت كيف تتفق عليها جميع الطالبات مع بُعدها عن المعقول. دخلت عابسة ونظرت إلينا في حدَّة، وقد وقفنا لتحيتها فلم تحينا، بل أشارت إليَّ بالجلوس وأمرت باقي الزميلات

بالاستمرار في الوقوف، وأخذت تسألهن عن معنى هذا السخف الذي اتفقن عليه في كراساتهن، ودهشت الزميلات لجلوسي وتعجبن كيف لا تلومني مثلهن وقد نقلن ذلك السخف الذي تسميه المعلمة من كراستي؟ فكان المنظرُ مُضحكًا غريبًا، إذ تسألُهُنّ المعلمة فلا يجبنها، بل ينظرن إليّ ويقلن لي باللغة العربية: ما معنى هذا وقد نقلنا ذلك الحل من كراستك أنت؟ قلتُ: كيف ذلك وقد ادَّعيتُنَّ أنَّكُنَّ لا تنقلن مني؟ زاد غضبُ المعلمة وعجبت كيف لا يجيبها أحد وكيف ينصرفن عنها إليّ؟ وكلَّما سألتهن كلمنني باللغة العربية. كانت هي في وادٍ والطالباتُ في واد آخر فلم ينظرن إليها، ولم يعبأن بغضبها، بل كان كلّ اهتمامهن أن يطلبن مني شرح ذلك اللغز، وأخيرًا سألتني المعلمة عن السبب في التفاتهن إليّ وتكلُّمهن معي، فشرحتُ لها القصة، فعاقبَتْ جميعَ الزميلات. ولعل القارئ يظن أن كلمة جميع هذه تدل حقيقة على جمع مع أنها لا تفيد إلا ثلاث طالبات لأنه لم يكن بفصلنا إلا أربعة طالبات فقط وأنا رابعتهن (ليس ذلك من سورة الكهف).

كانت معلمة الحساب تعلمنا دروس التربية العلمية والعملية، كان علينا في ذلك اليوم أن نلقي دروسًا في الحساب على طالبات القسم الابتدائي، وكانت هي تنتقدنا في إلقاء تلك الدروس كلما تمت دروسنا وجئنا لنسمع الانتقاد، قالت: من الغريب أن أخلاق المعلمة تؤثر دائمًا على طالباتها، وقد مررتُ عليكن أثناء الدرس اليوم فوجدتُ أن كل التلميذات يغششن في الحساب إلا تلميذات نبوية، وهي الطالبة الوحيدة التي لم تغش وهكذا تأثرت تلميذاتها بها.

دروس التربية العملية

كنا نتعلم التربية العلمية والعملية على معلمة إنجليزية، فكانت تُشرف حتى على دروسنا باللغة العربية، وكنا نحضِّر تلك الدروس باللغة الإنجليزية نفسها، فكنا إذا أردنا أن نلقي درسًا على «كان وأخواتها» مثلاً كتبنا (Can & sisters) هكذا كنا نترجم الاصطلاحات اللغوية ترجمة حرفية مُضحكة، وكانت المعلمة في الغالب لا تقدر الدرس إلا بما تراه من نشاط التلميذات وطاعتهن لأوامرنا. ولهذا كانت زميلاتي إذا أردن إلقاء درس في فصل من الفصول أطلعن تلميذات ذلك الفصل على الدرس المراد إلقاؤه واتفقن معهن على كيفية الإجابة ورجونهن أن يتظاهرن في مبدأ الدرس بعدم الفهم، حتى إذا شرحته لهن المعلمة تظاهَرْن بفهمه.

أما أنا فقد كنت أعُدُّ ذلك الاتفاق غشًّا وتدليسًا لا يجوز لطالبة تتدرب على طرق التعليم- أي تعد نفسها أن تكون معلمة- أن تأتيه، ولهذا لم أكن أطلع تلميذات المدرسة الابتدائية على أي درس أريد إلقاءه عليهن.

وقد أغضبَتْ تلك الخطة تلميذات المدرسة الابتدائية، خصوصًا السنة الرابعة، وقد كان الفرق بيننا وبينهن في العمر لا يتجاوز السنتين أو الثلاث على الأكثر، فكُنَّ يعتبرن خروجي عن المألوف مع زميلاتي تكبرًا عليهن، فيقابلنه بكل عناد وعَداء. ومع هذا فقد كنتُ أستطيع حفظ النظام في التدريس أكثر مما تستطيعه زميلاتي.

كان الضربُ ممنوعًا، ولهذا كنتُ إذا تغيظت من تلميذة في فصلي أضغط على ذراعها ضغطًا يُؤلمها، وبينما كانت واقفة في طابور الساعة العاشرة وكان عليَّ في ذلك الوقت أن ألقي درس حساب على السنة

الثالثة الابتدائية. بينما كنت واقفة في ذلك الطابور وإذا بي أسمع ضجة في طابور السنة الثالثة الابتدائية، وأراهن يطلبن دبابيس صغيرة من زميلاتهن في الفصول الأخرى، فكانت الواحدة منهن تقول لغيرها أعطيني دبوسًا صغيرًا أرده إليك بعد درس أبلتي نبوية موسى.

ولفتني هذا إلى أن هناك مؤامرة بين تلميذات السنة الثالثة تدبر لدرسي، فوجهتُ عنايتي لأقف على مدى تلك المؤامرة، وأخيرًا عرفتُ أن التلميذات يضعن في أكمام ملابسهن فوق العضد تلك الدبابيس حتى إذا ضغطتُ على ذراع إحداهن بيدي في الدرس دخلت الدبابيس فيها، وتعجَّبتُ من ذلك السخف، لأن الدبابيس في تلك الحالة قد تدخل في العضد لا في يدي أنا، وعرفت التلميذات اللائي فعلن ذلك بالذات وكن لا يتجاوزن الخمس، فلما دخلتُ الدرس ناديتهن وعرفتهن خطأ ما ذهبن إليه وكيف أن تلك الدبابيس قد تفتك بعضلات عضدهن أكثر مما تفتك بعضلات كفي، وهدَّدتُهُنَّ بالعقاب إذا هن عُدْنَ إلى مثل هذا العمل الطائش، فخجلن ونزعن الدبابيس من ملابسهن.

وجاء امتحان آخر السنة وكنت قد اخترت درسًا في اللغة العربية للسنة الرابعة، وأرادت التلميذات أن ينتقمن مني، فتوصلن إلى سرقة مذكرة درسي بمساعدة إحدى زميلاتي، وكنتُ قد أعددت الدرس إعدادًا طيبًا باللغة العربية، فأعدت بعض الأسئلة التي كنت أظن أن تجيب بها التلميذات، ولما دخلت الدرس أمام المفتش الممتحن- وكان المرحوم الشيخ شريف- كانت التلميذات تجيبني على أسئلتي بنفس الإجابات المكتوبة في مذكرة التحضير وعلى حسب ترتيبها في تلك المذكرة.

وساءني ذلك لأنه يدل في ظاهره على أني أطلعتُ التلميذات على درسي قبل إلقائه، فخجلتُ وتوقفتُ عن التدريس برهة، فقال لي الشيخ شريف: ما الذي يمنعُك عن إلقاء الدرس وأنت كما نعلم قوية في اللغة العربية؟ قلت يلوح لي أن التلميذات يعرفن درسي من قبل، قال: لا غرابة في ذلك فنحن في آخر العام وقد ذاكرت التلميذات جميع الدروس استعدادًا للامتحان. قلتُ: ولكنهن يعرفن الأجوبة التي حضَّرتها في مذكرة درس بالذات، قال: وهل يضيرك ذلك؟ قلت: نعم لأنه يظهر لي أنهن أطلعن على تلك المذكرة بحيلة شيطانية. قال: لا بأس فاستمري في درسك، وأتممت الدرس وأنا في أشد ما يكون من الألم.

أردت السنة التالية أن أحتاط فلا يعلم بدرسي أحد، فأخفيت مذكرة الدرس الذي كنت مكلفة بإلقاءه في امتحان النقل، وكان درسًا على الفرق بين الحجم والوزن في السنة الرابعة، وهو درس يحتاج إلى حُسْنِ إلقاء وحسن استنتاج، وقد علمتُ أن التلميذات سيتعنَّتْنَ معي ويتظاهرن بعدمِ الفهم مهما شرحت، أو يُكابِرْنَ فيما أريد شرحه، وقد حصل ما توقعته، فكلما عرضت شيئا على الفصل لأستنتج منه أن الحجم يمكن معرفته بالنظر، أما الوزن فلابد من حمل الشيء حتى يستطيع الإنسان معرفة وزنه، كن يكابرن ويقلن إنهن يعرفن وزن الشيء بالعين، فإذا عرضت عليهن قطعة من الخشب كبيرة الحجم وأخرى من الحديد تصغر عنها كثيرًا وسألتهن عن أيهما أثقل من الأخرى، أجبنني أن قطعة الحديد أثقل، وإذا أردت أن أستنتج منهن أنهن عرفن ذلك الثقل أو الوزن لأنه سبق أن حملن الحديد والخشب، وعرفن وزن كل منهما، أنكرن ذلك عليَّ وقلن إنهن يعرفن وزن الأشياء بمجرد النظر، وهذا ما كنت قد توقعته

من قبل، وأخيرًا أخرجتُ لهن بيضتين إحداهما تكبر عن الأخرى قليلاً ولكن العين تستطيع معرفة حجم الكبيرة منهما، وسألتهن أي البيضتين أثقل وزنًا من الأخرى؟ وظنت التلميذات أنني ظننت أنهن لا يفرقن بين حجم البيضتين فأشرن إلى البيضة التي كانت في يميني وقلن إنها أثقل من الأخرى، قلت لهن: أنتن تعلمن ذلك لأن حجم البيضة التي في يميني أكبر من حجم الأخرى التي في يساري، فأنكرن عليَّ ذلك، وقلن: إن عيونهن تعرف الوزن، وبعد أن أكَّدتُ عليهن في أن يقلن صراحة: أي البيضتين أثقل، وأجمع رأيهن على أن البيضة التي في اليمين أثقل من البيضة التي في اليسار، وضعتُ البيضتين في كفتي ميزان. وهنا دهش الجميع، حتى المفتش، لأن البيضة الكبيرة ارتفعت وهبطت البيضة الصغيرة مما يدل على أنها أثقل منها. واضطرَّت التلميذاتُ في تلك الحالة أن تعترفن أن النظر لا يمكن أن يعرف الوزن، وأمرتُ إحداهُنَّ بحمل البيضتين وهنا عرفت الخفيفة من الثقيلة بمجرد اليد، واتضح للجميع أني قد أفرغت ما في قلب البيضة الكبيرة بثقب صغير لم يره أحد. وهكذا استطعت أن آخذ درجة حسنة في إلقاء ذلك الدرس، بالرغم من عناد التلميذات ومكابرتهن. ومن ذلك اليوم استطعت أن أحفظ النظام وأُخْضِع تلميذات السنة الرابعة دون أن أتفق معهن على درسي من قبل إلقائه كما كانت تفعل ذلك زميلاتي.

حبي الشديد للحرية

كنتُ أحب الحرية والاستقلال في العمل إلى حدٍّ جعلني أكره أن أقوم بالرياضة البدنية، لأنني كنت مضطرة فيها أن أخضع لما يلقي عليَّ من

الأوامر دون فكر أو مناقشة، ولهذا كنتُ أَسْخَرُ من تلك الأوامر ولا أنتظم في اللعب مع باقي زميلاتي، فكنتُ آتي من الأعمال والأقوال ما يُضحك جميع الزميلات، فيضطرب النظام، وتضطر معلمة الرياضة البدنية إلى إخراجي من اللعب، وهذا كل ما كنتُ أتطلبه. وبتلك الحيل استطعت أن أفلت من تلقي دروس الرياضة البدنية، حتى إذا اضطرتني المعلمة يومًا إلى اللعب أجبرتها على إخراجي بشتى الوسائل.

وكانت المدرسة السّنية تصرف لنا الملابس والأحذية، ولما كانت قدماي صغيرتين بحيث لا تزيد عن قدمي طفلة في العاشرة من عُمرها، فلم أكن أجد من الأحذية ما يلائمها، فكنت آخُذ حذاءً واسعًا لا أستطيع معه المشي على أطراف أصابعي في الرياضة البدنية، وهو ما كنت أريده، وقد علمت الناظرة بمناوراتي في دروس الرياضة وتهكمي عليها، فحضرت بنفسها درس الرياضة البدنية لترغمني على اتباع الأوامر، ولما رفضت السير على أطراف أصابعي طلبت منى أن أطيع الأوامر، فقلت لها إن حذائي لا يمكّنني من ذلك لكبر حجمه، قالت: لابد من الطاعة، قلت: إذن أنا لست بمسئولة عن نتائج تلك الطاعة، ورفعت إحدى قدميَّ وضربت فردة حذاء بالأخرى فطارت فردة الحذاء من رجلي حتى سقطت على صدر الناظرة تقريبًا، وكانت لا تزال مزررة وغضبت الناظرة، ولكنها لما شاهدت فردة الحذاء مزررة وإنها مع ذلك خرجت من قدمي علمت أني كنت على حق في عدم إمكاني السير على أطراف أصابعي لسعة ذلك الحذاء، واضطرت الناظرة عندئذ أن تبرح المكان دون أن تقول لي شيئًا، ولكنها فكرت بعد ذلك في الانتقام مني، فطلبت أن أقوم أمامها بإعطاء درس الرياضة البدنية لزميلاتي، ولما كنت لا أحضر دروس الرياضة البدنية، فقد كان من المستحيل أن أقوم بإعطاء ذلك الدرس ولهذا وقفت متحيرة،

وما كاد يقع نظر زميلاتي عليَّ وأنا أحتل محل معلمة الرياضة البدنية حتى أرسلن ضحكاتهن العالية من كل جهة، بينما وقفتُ أنا صامتة لا أبدي حراكًا، فطلبت مني الناظرة أن أبدأ الدرس، وشدَّدت في الطلب، وكانت كلما طلبت ذلك علت ضحكاتُ زميلاتي، وأخيرًا قلت لهن إنهن معاقبات لضحكهن، وهنا أمرتهن بالوقوف بدون حركة، وقد زاد ذلك في ضحكهن، ولكن الناظرة شددت عليَّ مع ذلك أن ألقي عليهن الدرس، وأردت أن أسخر بها وبهن فقلت بصوت ثابت رزين: (اليدان والرجلان رَفْع). واحد اثنين. وهنا لم تتمالك الناظرة ومعلمة الرياضة البدنية من الضحك. وتبعها الطالبات فتركتني وتركتهن وذهبت وهي تكاد تموت من كثرة الضحك، ومن ذلك اليوم تركتني وشأني.

وكانت ناظرة المدرسة تمنع الطالبات من شراء الفاكهة، وكان يعز عليَّ ذلك كثيرًا، لأن غذائي كان أكثره من الفاكهة، فكنت أجد صعوبة عظيمة في حرماني منها، لهذا كنتُ أشتريها رغم الأوامر الصادرة لجميع الخدم بعدم شراء الفاكهة للطالبات، فكنت أرشي الخدم لأحملهم على مخالفة أوامر الناظرة، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير بعد الساعة الرابعة وقد وضعت في حجري عددًا عظيمًا من البرتقال أريد أن أضعه في دولابي بعد أن أخذته من الخادمة التي اشترته لي وكان اسمها نبوية، إذ فأجتني الناظرة وصرخت في وجهي قائلة: ما هذا؟ أفزعني صوتها فسقط البرتقال من حجري وانتشر على الأرض، ووقفتُ وسطه مندهشة ونظرت إليَّ الناظرة في غضب وأعادت قولها: ما هذا؟

عُدتُ إلى صوابي واستجمعت قواي وقلت في ثبات وحزن: إنه برتقال كما ترين. قالت: وكيف خالفت أوامر المدرسة واشتريت الفاكهة؟ فقلتُ: لأنها أوامر تخالف المعقول بل تخالف الواجب، فإن المدرسة يجب أن

تحافظ على صحة الطالبات، ولقد سمعتك أمس تقولين أنك تأكلين كل يوم في الصباح برتقالة، وأنك تجدين في ذلك صحة، فهل يجوز لك بعد هذا أن تحرمي الطالبات مما تتمتعين به وتحافظين به على صحتك؟ قالت: ولكن هذا البرتقال كثير جدًّا؟ قلت: لو أنك سمحت لنا بشراء الفاكهة دون عقاب لاكتفيتُ بشراء برتقالة أو برتقالتين في اليوم، أما وأنت تمنعين الخدم من شراء الفاكهة لنا فإني مضطرة أن أرشيهم بالنقود لشراء ذلك البرتقال، وليس من المعقول أن أكلفهم مخالفة أمرك كل يوم، فأنا أطلب منهم شراء ما يكفيني شهرًا أو ما يقارب الشهر.

فكّرت الناظرة قليلاً، ثم قالت: ومن الذي اشتري لك هذا البرتقال؟ قلت: إني لا أسمح لنفسي بذكر اسمه، قالت: ولكني آمرك. قلت: كلا.. لك أن تعاقبيني إن شئت، أما غيري فلا سبيل لك عليه، ولستُ أبوح باسمه مهما كانت الظروف، ورأت أنه لا فائدة من الأخذ والردّ معي فتركتني، وأحضرت ضابطة المدرسة وكانت سيدة نمساوية، وطلبت منها أن تسأل الخدم وتبحث عمّن اشترى ذلك البرتقال لتفصله من المدرسة، ومازالت الضابطة تسأل وتتجسّس حتى عرفت الفرّاشة المسكينة التي اشترت ذلك البرتقال وأرادت أن تقدمها للناظرة، وما كاد يصلني الخبر حتى جُنَّ جنوني، وأشفقت أن تفصل تلك المسكينة بسببي، فأسرعت إلى الضابطة وكانت تخشاني وتحبني في آن واحد، فقلت لها: أرجوك أن لا تخبري الناظرة باسم الفرّاشة المسكينة، وسأذهب أنا إلى حضرة الناظرة وأطلب منها معافاتك من البحث عن شارية البرتقال من الآن. قالت: حسنًا فسأقبل ذلك إن فعلت. وفي الحال دخلتُ على الناظرة وأنا متأثرة

لا أستطيع حبس دموعي، فقلت لها في شيء من الحدة والتأثر: إني لا أستطيع أن أمكث في المدرسة ولا ساعة واحدة إلا إذا منعت الضابطة عن البحث عن الخادمة أو الخادم الذي اشترى لي البرتقال لأن الضابطة تضايق الخدم جميعًا، وكلهم يدعون عليَّ لأنني أنا سبب تلك المضايقة، فإما أن تأمري بالكف عن ذلك البحث وإما أن تسمحي لي الآن بترك المدرسة. ورأتني مصممة على ما أقول، فسكتت قليلاً ثم قالت: أتعدينني أنك لا تكلفين الخدم مرة أخرى شراء الفاكهة؟ قلت: نعم أفعل ذلك. قالت: قد اتفقنا. قلت: ولكني لا أبرح تلك الغرفة حتى تأمري الضابطة أمامي بعدم البحث عن الخادم الذي اشترى البرتقال، فأحضرت الضابطة وأمرتها بما طلبت وخرجت معي من غرفة الناظرة وهي تضحك وتربت على كتفي قائلة: لقد نفعت بجرأتك تلك المسكينة التي كادت تُفصل بسببك.

نهاية الدراسة بالمدرسة السنية

كان احتجاج الطالبات على الضابطة التي عاقبت إحداهن سببًا في أن تحقد عليَّ ناظرة المدرسة، ظنًّا منها أنني أنا التي أثرتهن ضد المدرسة، ثم زاد الموقف تحرجًا بيني وبينها يوم أرادت عقابي، وطلبت مني الاعتذار فرفضت، وشاء سوء الحظ بعد هذا أن تحقد عليَّ إحدى زميلاتي لتقدمي في اللغة العربية، فتدس لي، مع أنها لم تكن معي في فصل واحد.

نعم شاء سوء الحظ أن تتهمني تلك الزميلة بالوطنية وأن تحقد عليَّ ناظرة المدرسة الإنجليزية لهذا الاتهام الباطل، لأني في ذلك الوقت لم أكن أهتم إلا بالدراسة، وكنت أعتقد أن الإنسان ينفع وطنه بالتقدم في العلم لا بالمشاكسات.

وترتب على ذلك أن ناظرة المدرسة كانت تكرهني كراهة شديدة، ولولا حُسْنُ الحظِّ في أنها اصطدمت بالمرحومة السيدة فاطمة عمر - وكان ذلك الاصطدام سببًا في خروج المرحومة وكانت أولى الفرقة التي كانت قبلي بسنة واحدة - لولا ذلك لسعت الناظرة في الإخراج، ولكن عدد الطالبات في ذلك الوقت كان قليلاً كما قدمت، وكانت هي سببًا في إخراج أولى السنة الثانية. وقد لفتت نظرها الوزارة لهذا الأمر، فخشيت إن هي فصلتني أو اضطرتني إلى الخروج أن لا توافقها الوزارة على ذلك. ولذلكم تحملتني سنتين على مضض وضغينة. فلما نقلت إلى السنة الثالثة بلغ الأمر بيننا أشُدَّه، فكانت تتعمد إيلامي في كل صغيرة أو كبيرة، وكان لابد من إخراجي أو تركي المدرسة لشدة تعنتها، لولا أن زميلتي السيدة الفاضلة عائشة صبحي تركت المدرسة في نهاية السنة الثانية وكانت ثانية الفصل، ولم يعد في فصلي بعد هذا إلا ثلاث أنا رابعتهن. وقد خشيت الناظرة إن هي طلبت إخراجي أو اضطهدتني إلى حد يضطرني إلى الخروج أن لا توافقها الوزارة على ذلك العمل. فكانت تؤلمني حتى إذا صمّمت على ترك المدرسة، عادت تلين وترجو.

وفي ذات يوم قالت لي كلمة جارحة آلمتني كل الإيلام، وكان ذلك عند خروجي من آخر حصة من حصص الصباح. تألمت إلى حد تدفقت معه دموعي سيولاً، وتأثرت تأثرًا جعل حرارتي ترتفع إلى ٣٩ درجة، وبدلاً من أن أذهب إلى الغداء ذهبتُ إلى مستشفى المدرسة. وكان به في ذلك الوقت طبيب المدرسة المرحوم الدكتور علوي باشا. وقد أخفيتُ دموعي أمامه، وتظاهرتُ أن المسألة مرض فجائي، وذلك لأني كنت في شبابي أتعالى عن الشكوى، أما في كهولتي اليوم فقد أصبحت لا أجد في بث

شكواي من الغضاضة ما كنت أجده قبل ذلك. لهذا كتمتُ شكواي من حضرة الناظرة، وكشف عليَّ الطبيب كمريضة فصرح لي بإجازة خمسة عشر يومًا، وما كاد خبر الإجازة يصل إلى حضرة الناظرة وقد ارتديت ملابسي وعوّلت أن أذهب إلى منزلي ولا أعود، ما كان يصلها ذلك الأمر، حتى هرعت إلى الطبيب وهي تُرْغِي وتُزْبِد وتقول: كيف تصرح لها بالإجازة وهي ليست بريضة؟ وقد أدّت كل حصص الصباح وهي في غاية الصحة، وكل الأمر أنها غضبت مني فتصنّعت المرض. فقال لها الطبيب: إن حرارتها يا سيدتي ٣٩ درجة، بل تزيد على ذلك قليلاً، وما علمت بريض يتصنع المرض فترتفع حرارته. قالت: لعل هذا سبب غضبها؟ قال: وإذا كان غضبها منك قد رفع حرارتها إلى درجة ٣٩ فهل يجوز لي أن أبقيها معك لترتفع حرارتها إلى درجة الموت إذا أنت أغضبتها مرة أخرى؟

صمَّم الطبيب على إعطائي الإجازة وذهبت جهود الناظرة سُدى، وخشيت إن أنا خرجت في حالة غضبي هذه أن لا أعود، فأتت إليَّ في غُرفة الانتظار حيث كنت أنتظر الإجازة بالخروج، وقبلتني قبلة حارَّة تدل على شغفها بي إلى حد الغرام، وقالت إنها لا تمانع في أن أخرج لكن لابد من أن أخرج مسرورة لا غاضبة، وحتمت أن أستريح وأن آكل قبل خروجي، وما كاد يتم هذا حتى هبطت حرارتي، الأمر الذي أدهشني كل الدهشة، وهنا تأكدتُ أن للغضب أو السرور أثرًا عظيمًا في صحتي. ولقد سبق أني ذكرت أني لما سررت في طفولتي شفيت من مرضي.

أحضرت لي الناظرة في غرفة الانتظار قليلاً من الطعام وشيئا من الفاكهة وجلست تواسيني، وتطلب مني أن لا أتغيب كل تلك المدة التي صرّح لي بها، وكان ذلك يوم الأربعاء، فوعدتها بالطاعة، وخرجتُ بعد أن

قبلتني ثانية وثالثة، وعدتُ يوم السبت. ومن ذلك اليوم جعلت تتحاشى إيلامي، لكنها كانت تتمنى لي من صميم قلبها أن لا أنجح. على أنها كانت تعلم حق العلم أن أملها في عدم نجاحي ضائع لا محالة.

كنت أكنُّ للناظرة ما كانت تكنه لي، وفي يوم دخلت علينا في المذاكرة فحركت حقدي، وما كادت تخرج حتى ابتدأت أكتب في كناشة الأعمال الأبيات الآتية:

حـلـوا فَــراحَ الحــزم وارتحــل الحجا
وانــهــد جـــاه الـعـلـم والآراء
حملوا على جيش الفضيلة فانثنوا
مـتـسـربـلـين بـحـلـة حمراء
هــذا دم الإنـصـاف فـوق ثيابهم
يـبـدي فـظـائـعـهـم لـعـين الرائي
نـيران حـقـدي أضـمـرتـهـا قلوبهم
فـتـسـربـلـوا مــن لـونـهـا برداء
مـا دام أهــل الـنـار تحجب روضنا
عـنـا فـأيـن مـعـالم السراء
إن يـدّعـوا الإنـصـاف أو ينسب لهم
فـوفـاء عـرقـوب وبـخـل الطائي

كتبت ذلك في كناشة الأعمال بالقلم الرصاص، وما كنت- كما قدمت- أهتم بالسياسة، ولا أود خروج الإنجليز من مصر، ولكن هو الغيظ من الناظرة جعلني أصب جام غضبي على أبناء جنسها. شاء

التجسس أن تُسرق هذه الكناشة بحيلة لا أعرفها إلى الآن، وأن تُعطَى للناظرة وأن تُرشد إلى مكان الأبيات. وجُنَّ جنونها ووجدت دليلاً على اشتغالي بالسياسة التي علم الله أني ما اشتغلت بها، فأرسلت الكناشة إلى وزارة المعارف تطلب عقابي. وجاءني مفتش يحقق معي فيما كتبت فقلت: هل يعاقب الإنسان عما يجول بباله وخاطره؟ قال: كلا ولكن ليس لأي إنسان أن يحرض على الثورة ضد الحكومة القائمة. قلت: وكيف حرضت عليها أنا؟ قال: بتلك الأبيات. قلت: إن تلك الأبيات كتبت في كراسة لا يقرؤها غيري، ولست متغالية إني أنا شخصيًا لم أقرأها منذ كتبتها، فكيف تعد ذلك تحريضًا وهو لم يطلع عليه أحد؟ إني يا سيدي حرة في أن أكره أو أحب دون عقاب، فإذا حرضت بطرق علنية كان لكم أن تعملوا معي ما تشاءون، أما ما يخالج ضميري وما يجول في خاطري فلا سبيل لكم إليه، على أن تلك الناظرة يجب أن تُعاقَب هي، إذْ كانت السبب في إظهار تلك الأبيات التي لولا عملها هي لما اطلع عليها أحد. وأتم المفتش التحقيق وعرضه على المغفور له سعد باشا زغلول فأعجب برأيي أيما عجب، وقال:

حقيقة ليس لنا على قلوب الناس رقابة، وهي لم تكتب ولم تنشر، ولا تعد هذه الكراسة إلا خيالاً يجول في خاطرها. وأمر بحفظ الأوراق، وتمت السنة النهائية بحالة يعملها الله. على أني لم أهن فيها برغم ما كانت تكنه لي الناظرة من العداء المكين.

ولم يكن المستر دانلوب من رأي الناظرة، بل كان يعطف عليَّ ويُقِرُّ وزير المعارف على رأيه فيما فعل.

تمت السنة ونجحتُ، وكنت الأولى بتفوق عظيم طبعًا.

وكان الواجب أن أعين في المدرسة السنية نفسها، ولكن حضرة الناظرة قالت إنها لا تسمح لمكان واحد يضمني ويضمّها اللهم إلا القبر، ولما كانت وزارة المعارف لا تدير القبور فقد عينتني بمدرسة عباس الأميرية.

عزة النفس تقضي على دائمًا

كنت من صغر سني ضعيفة النظر، ولولا قلة المتعلمات في ذلك الوقت لما تمكنت من دخول المدرسة السنية، ولا صُرّح لي بأن أكون معلمة، لأن كتب التربية تقضي بأن يكون المعلم حسب وصفهم ملء المسامع والأفواه والمقل. أي أن يكون عظيمًا في شكله، حادَّ الحواس، حتى يستطيع أن يضبط نظام التلاميذ. وقد كنتُ أنا على العكس من ذلك قصيرة القامة، نحيلة الجسم، ضعيفة البصر، وإن كان منظر عيني لم يكن يدل على شيء من ذلك الضعف، بل كان من يراهما يحسبهما من أحسن العيون.

على أنَّ التجارب العملية أثبتت كذب ما يذهب إليه علماء التربية. فقد كنتُ على صغر حجمي، وضعف بصري، أستطيع حفظ النظام إلى حدٍّ بعيد، ولا ينافسني فيه معلم آخر. وهكذا نحمد الله على قلة المتعلمين والمتعلمات في ذلك العهد. ولولا تلك القلة لما استطعت أنا أن أعمل في معاهد التعليم شيئًا.

نجحتُ في دبلوم معلمات السنية وعملتُ– كما قدمت– معلمة، وبعد مُضيّ سنتين أرادت الوزارة تثبيتي، فأحالتني على الكشف الطبي، وكان القائم بذلك الدكتور فيشر، فدهش عندما رأى ضعف نظري، وحتم عليَّ أن ألبس النظارات، وكانت بالطبع النظارات ثقيلة جدًّا، وقد تألمت في أول لبسها لثقلها، وكان قد أمرني أن أعود إليه بعد أن ألبسها أسبوعًا. فعدتُ وقلت له: إني لا أستطيع الاستمرار على لبس تلك النظارات الثقيلة.

فنظر إليّ وكأنه أنف أن يرد عليّ الجواب. ثم التفت إلى مساعده وقال له: أفْهِمْ هذه أنه يجب عليها لبس تلك النظارة. وساءني احتقاره، فتأملت ونظرتُ إلى مساعده قائله: دع صاحبك هذا يفهم أني لن ألبسها. وكان المساعد لم يبدأ كلامه ثم ألقيت بالنظارات أمامهما وخرجت مسرعة.

وكتب الدكتور فيشر بعد ذلك تقريره، فقال فيه إنني سأفقد الإبصار بعد سنتين على الأكثر وأن عيوني لا تتحمل قراءة ثلاثة كتب، وأنه لا يوصي مطلقًا بتثبيتي. وبلغني هذا، فكتبت للوزارة أقول إني لا أستطيع العمل في الحكومة إلا مثبتة وإنهم إذا لم يثبتوني وجب عليهم أن يعتبروا خطابي هذا استقالة. وقامت الوزارة وقعدت لذلك النبأ، إذ لم يكن قد توظف في خدمة الحكومة من معلمات السنية إلا خمس معلمات قبل تخرجي وثلاثٌ من زميلاتي. وكانت الوزارة في حاجة شديدة إلى معلمات لكثرة المعلمين وقلة المعلمات.

فأكثرت الوزارة من إرسال المفتشين للتفتيش عليّ والتبين من كفاءتي العلمية ومقدرتي على حُسن النظام. وقد أثبتت تقاريرهم أنني أحسن المعلمات نظامًا وتدريسًا، وقد مللتُ من كثرة المفتشين، وقضت عليّ عزة النفس أن أباشر التدريس واقفة، لا أجلس مطلقًا حتى لا أضطر إلى القيام إجلالاً لدخول مفتش، على كثرة هؤلاء المفتشين. وأخيرًا زارني مستر دانلوب مستشار وزارة المعارف بنفسه، ولم أكن أعرفه شخصيًّا، وكنت قد تضايقت من كثرة المفتشين وعوَّلت على أن لا أعبأ بأحد منهم.

فلما دخل عليَّ مستر دانلوب وناظرة المدرسة- وكنت بالطبع واقفة أدرِّس- أمرتُ التلميذات بالوقوف ثم الجلوس وسرت في درسي دون أن ألتفت إليه. وتناول هو كراسة التحضير وكان بها جملة من الأوراق

الصغيرة إذ كنت أؤلف كتابًا للمطالعة. وقد تركت أصول ذلك الكتاب في دفتر التحضير فتناثرت الأوراق على الأرض تحت أقدام الطالبات. ومال هو لالتقاطها، وأرادت بعض التلميذات أن تساعده في ذلك فأمرتُهنَّ بالكف عن هذا والالتفات إلى الدرس، وتركته يلتقط الأوراق بنفسه، وسرت في درسي دون أن تلتفت إليه التلميذات فأعجبته قوة روحي في حفظ النظام والتقط جميع الأوراق بنفسه، ووضعها في الكراسة كما كانت ثم وضعها على منضدة المدرس.

كل ذلك وأنا لم ألتفت إليه ولم أحسب حسابًا لوجوده. وكانت السنة التي أدرس فيها الرابعة الابتدائية وكنت أقرأ معهن قطعة إملاء أمليتها عليهن أمس، وأخذتُ منها موضوعًا للمطالعة، وكانت إحدى التلميذات متغيبة في درس الإملاء أمس ولم يكن أمامها كراسة بل كانت تستمع لما يقال. وظن مستر دانلوب أني لم أرها، فقال لي: ألا ترين في فصلك هذا مخالفة لنظم التدريس. فقلت: أتقصد هذه التلميذة الجالسة في آخر الحجرة التي ليس أمامها كراسة؟ وكان الرجل يظن أني لضعف نظري لا أري ذلك. فدهش وقال: نعم.

قلت: إننا نطالع في كراسة الإملاء التي أمليتها أمس عليهن، وقد كانت تلك التلميذة متغيبة، فالإملاء ليست مكتوبة في كراستها، ولهذا لم آمرها بإخراجها. قال: أو ليس من حسن النظام الظاهري أن تخرج تلك التلميذة كراستها وإن لم يكن الإملاء مكتوبًا فيها؟

قلت: كلا أنا لا يهمني الظاهر وإنما يهمني النظام الحقيقي وفائدة التلميذات، فإن تلك التلميذة لو أخرجت كراسة ليس فيها الإملاء ونظرت إليها لشغلها ذلك عن تفهم درسنا اليوم، إذ هي تنظر إلى غير ما

نقرأ نحن فيه. أما إذا جلست بدون كراسة فإنها مضطرة أن تصغي إلى ما يقرأ. قال: صدقت. ثم قال: وما درسك اليوم؟ قلت: مطالعة. قال: إن الوزارة قررت أن تطالعي في كتاب «الفوائد الفكرية» من صفحة كذا إلى صفحة كذا، وأنت اليوم تخالفين هذا وتطالعين مع تلميذاتك في شيء لم تقرره الوزارة. قلت: لقد فهمت من هذا القرار الذي قررته الوزارة أنها تريد أن تحدد لي كمية ما يجب أن تقرأه التلميذات لا أن تضطرني إلى قراءة كتاب لا يفسد ذوق التلميذات في اللغة العربية فحسب، بل يفسد ذوقي أنا الأخرى. فنظر إليّ وقال: ومن أين أتيت بتلك الإملاء؟ قلت: لقد وضعتها أنا خصيصًا، لأنني في صدد تأليف كتاب مطالعة لهن. فأنا أملي عليهن أصول كتابي. قال: وهل أنت واثقة من أنك لم تخطئي في تلك الأصول؟ قلت: لقد عينتني الوزارة هنا لأدرِّس اللغة العربية، ومعنى هذا أنني أعلم الطالبات المطالعة والإنشاء، فإن كنت أنا نفسي لا أحسن ذلك كان الخطأ واقعًا على الوزارة التي عينتني لأنها عينت معلمة تجهل اللغة لتدرِّس تلك اللغة. أما أنا فإني أقوم بواجبي كمعلمة تعرف تلك اللغة، فإذا اتضح للوزارة غير ذلك كان لها أن تفصلني.

قال: ترجمي لي تلك القطعة. فترجمتها وسُرّ منها، ثم قال: ومن أين جئت بتلك الأفكار؟ قلت: لقد قرأتُ كثيرًا، ولكني لا أذكر بالذات أني نقلتها من كتاب خاص. قال: إذن كل ما تمليه على الطالبات وكل ما تطالعينه معهن من إنشائك؟ قلت: نعم. قال: ولم لا تقرئين في كتاب «الفوائد الفكرية»؟ قلت: لأنه لا يعجبني. قال: وهل أنت أفضل من عبد الله باشا فكري؟

قلت: كلا ولكنه مات، ولو بقي إلى الآن لغير كتابه حسب تغيُّر الزمان، فأنا أفضل منه من تلك الوجهة، إذ أنا لا أزال باقية أعرف تغيرات الدهر وقد مضى هو، هذا فضلاً عن أنه رجل قد لا يعرف ما تحتاج إليه السيدات، أما أنا فقتاة أعرف ما تحتاج إليه الفتيات، خصوصًا وأني أعاصرهن الآن. قال: ألا تجدين صعوبة في التدريس لضعف بصرك؟ قلتُ: لا أجد من ذلك شيئًا لأني كما ترى أستطيع أن أطالع كما أستطيع أن أرى آخر تلميذة في الفصل ولا يُطلب من المعلمة إصابة المرمى الدقيق كما يُطلب من الضباط والعساكر. قال: صدقت ولكنك تجيدين حفظ النظام إلى درجة بعيدة. فكيف تجيدين هذا مع ضعف نظرك؟ قلت: إني أحفظ النظام بحسي لا ببصري. ويكفي أن ترى مني الطالبات عينين سليمتين إذا رفعتهما في طالبة ارتعدت وظنت أني لا أرى وجهها فقط، بل أرى دخيلة نفسها، وهذا- على ما أظن- كاف في حفظ النظام. قال: صدقت.

ثم التفت إلى الناظرة وقال: الحق أني لم أناقش معلمة ولا معلمًا في منطق هذه المعلمة. قالت: صدقت يا مستر دانلوب فهي دائمًا قوية المحاورة. وهنا عرفت أنا أن مخاطبي الذي كلمته بجفاء هو القابض على زمام الأمور في وزارة المعارف، وكدتُ ارتجف لولا رباطة جأش رُبيت عليها، وذهب مستر دانلوب بعد ذلك إلى وزارة المعارف وقال: لو قيل لي إن نبوية موسى عمياء لا ترى ضوءًا لثبتُّها. ثم أراد بعد هذا أن يغير من تقرير الدكتور فيشر الذي تركتُ له نظاراتي بعد أن دفعت فيها ثلاثة جنيهات، فطلب من مسز الجود أن تكون الوسيطة بيني وبين الدكتور فيشر لتعديل تقريره، وجاءتني مسز الجود وقالت: أريد أن تذهبي مرة أخرى إلى الدكتور فيشر. فقلت: لست بفاعلة ولو أدَّى ذلك إلى فصل.

قالت: ولكنني لم أسيء إليك وأنا صديقتك وسأذهب معك وأمنعه من أن يكلمك. قلت: إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

ذهبنا إلى الدكتور فيشر فأخذ يلاطفني، ويقول لي يظهر أن الوزارة ليس عندها غيرك، وما دام الأمر كذلك فنحن نقبل نظرك على العين والرأس، ثم أصلح من تقريره وكتب تقريرًا مناسبًا. وثُبت بقرار من مجلس الوزراء.

وعلى ذكْر الدكتور فيشر أقول إنني في سنة ١٩١٤- أي بعد أن مضى على تلك الحادثة خمس سنوات- أردتُ أن آخذ رأيه في مسألة بصري، فذهبتُ إليه في عيادته كإحدى المريضات، فلما نظر إليَّ وكان هو الذي يكتب في دفتره أسماء المرضى، رأيته يكتب اسمي دون أن يسألني، فعرفت أنه لا يزال يذكرني، فقلت له: ما رأيك؟ هل سأفقد البصر قريبًا؟ فضحك وقد تذكر تقريره الذي قال فيه إنني سأفقد بصري بعد سنتين، وكان قد مضى على ذلك التقرير خمسُ سنوات، ثم قال: لا خوف على بصرك الآن فإنه على ما يظهر لي يتحسن. وهكذا الغيظ يغير حتى التقارير الطبية التي يجب أن تكون ثابتة.

الفصل التاسع

نبوية موسى «الشاعرة»

صدر ديوان نبوية موسى في مايو من عام ١٩٣٨ وكُتبت قصائدُه حسب تواريخها بين أعوام (١٩٠٤- عندما كانت الشاعرة في مدرسة السنية- و١٩٢٥)، وكانت أكثر القصائد في عام ١٩١٩، ولهذا مبرره، حيث كان المجتمع المصري يمر بعنفوان ثورة ١٩١٩.

لكن قبل الحديث عن علاقة نبوية موسى بالشعر، ينبغي أن نلقي الضوء على الشعر المصري في الفترة بين ١٩٠٤ و١٩٢٥ إبان إصدارها للديوان حسب تاريخ القصائد، ففي عام ١٩٠٤ رحل البارودي، لكنه كان قد لعب دورًا كبيرًا في إحياء الشعر العربي، من منظور التواصُل مع الإبداع الشعري في أزهي عصوره، خاصة العصر العباسي، واحتذاء تقاليده وانتهاج معجمه وموسيقاه وأبنيته العريقة، كانت فكرة الإحياء الشعري متواكبة مع حركة المجتمع الصاعد نحو مستقبل جديد، يبحث فيه أبناؤه عن مكانهم تحت الشمس، ويواجهون المستعمرَ الغربي وواقع مجتمعهم الحائر بين ولائه للدولة العثمانية المنهارة، وبين المستعمر الذي يضغط بقوة للسيطرة على مقدراته، كان الإحياء جسرًا تعبره الذاكرة إلى مساحة من التاريخ والثقافة تمثل الأرض الصُّلبة، والشعور بالانتماء لمراحل من السطوع والعزة.

هكذا تسلَّم شوقي وجيله راية الإحياء، وبرز حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وخليل مطران وعلى الجارم ومحمد عبد المطلب وأحمد نسيم والكاشف وغيرهم.

وفي منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، بدأت تلُوح في الأفق إبداعات جيل جديد من الشباب، رأى في تيار الإحياء الشعري، واحتذاء النموذج التراثي جُمودًا لا يتوافق وتطلعاته، وقد تميز هذا الجيل الصاعد باطِّلاعه على الثقافة الغربية، ممثلة في الشعر والنقد الإنجليزيين، وكان في طليعتهم عبد الرحمن شكري ثم عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، الذين ما لبثوا أن التقوا على رؤيتهم الجديدة، قبل أن ينفصل عنهما شكري، ويصدر العقاد والمازني كتاب (الديوان)، الذي نالا فيه من تيار الإحياء وخاصة من ممثله الأول أمير الشعراء (شوقي)، بل إن عُنفهم واندفاعهم نال شكري نفسه، بعد أن كان في طليعة الداعين إلى التجديد الشعري من منظورهم الفني ذاته.

وهكذا نجد أن العشرينيات من القرن المنصرم قد شهدت أوج الإبداع الشعري لتيار الإحياء، وصعود جيل جديد من الشعراء عُرف بجماعة أو مدرسة الديوان، وقد كان التيار الأخير هو الممهِّد الحقيقي لبزوغ الحسِّ الرومانسي في الإبداع الشعري، خاصة أن شعراءه تأثروا بشكل مباشر بشعراء الرومانسية الإنجليز.

وفي نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، كان الحسُّ الرومانسي قد بدأ يسود النتاج الشعري، وتدريجيا طغى تمامًا على الساحة الشعرية في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، ولمعت أسماء أحمد زكي أبو شادي- مؤسس مجلة أبوللو التي حمل التيار الرومانسي الجديد اسمها-

وناجي وعلى محمود طه وسائر الشعراء الرومانسيين المصريين والعرب. لذلك تُعَدُّ القصائد التي كتبتها (نبوية موسى) من باب القصائد الوطنية أو التهاني أو المديح إلى آخره- ليست مواكبة لحركة الشعر المصري هذه الفترة، لكنها تعبر عن رؤيتها الخاصة، بغَضّ النظر عن المرحلة التي كان يمر بها الشعر المصري ويؤديها الشعراء بمدارسهم المختلفة.

يضم الباب الأول من ديوان (نبوية موسى) قصائد وطنية تبلغ خمس عشرة قصيدة، ثم الباب الثاني «قصائد قيلت في الحوادث الهامة في الحركة الوطنية» وعددها ثماني عشرة قصيدة، ثم الباب الثالث «في الشكوى من الزمان» يضم ثماني قصائد، والباب الرابع «في المراثي» يضم سبع قصائد، ثم الباب الخامس «في التهاني والمديح» يضم اثنتين وثلاثين قصيدة قصيرة، ثم الباب السادس قصائد قيلت والشاعرة تلميذة بمدرسة السنية وهو عبارة عن ثماني قصائد قصار.

كيف أحبَّت نبوية الشعر؟

لم نجد لنبوية موسى حديثًا لها في سيرتها الذاتية عن شعرها، فقُمنا بتَتَبُّع اهتمامها بالأدب، فوجدنا أنها ذكَرَتْ تعلُّقَها بالأدب العربي عامة من خلال عين أخيها الراثية/ العارفة للثقافة العامة، بحكم أنه قد سبقها في مراحل التعليم، فتقرر كيف تذوقت الأدب العربي قبل أن تعرف القراءة فتقول: «كنتُ في سنِّ السادسة لما كان شقيقي في سنِّ السادسة عشرة، وكان طالبًا في المدارس الثانوية، وقد ألفَ مُجالستي فكان يقرأ لي في كتب الأدب القديم، كالأغاني وغيرها، وكنتُ- لصغر سني- أصغي إليه باهتمام، حتى تعوَّدتُ فَهْمَها، وكان إذا حاول حفظ قصيدة كلفته

المدرسة حفظها، حفظتها معه، ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال، فهم لا يجدون فيها صعوبة، ولهذا كثيرًا ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعي له وهو يقرؤها قبل أن يحفظها هو، وكان يسُرّه ذلك فيُسمعها لي ويطلب مني أن أسمعها له، وهكذا تمت بيننا الصداقة والألفة واستطعتُ أنا أن أتذوّق الأدب العربي قبل أن أعرف الألف من الباء».

مقدمة صاحبة الديوان

إن الشعر في اللغة هو العلم أو هو فن البلاغة والخيال، وهو لذلك يكون في النثر كما يكون في النَّظْم، ولكنه أطلق على المنظوم لأنه في الغالب أكثرُ بهاء، وأشَدُّ رَوْعَةً على النفس، وأقوى تأثيرًا في العواطف من المنثور، حتى وإن جاراه المنثور في دقة الخيال وحُسْن المعاني، لأنَّ وَزْنَ المنظوم وقافيته يُكْسِبانه بهاءً لفظيًّا لا وجود له في المنثور، والنفس عادةً تُطربها النغمات الموسيقية فإذا اجتمعت تلك النغمات المحبوبة مع الخيال الدقيق والمعاني الجذَّابة أدخلت على النفس سرورًا لا يدخله نفس ذلك الخيال، وتلك المعاني لو أنها في منثور لا وزن له ولا قافية.

لهذا أعتقد أنَّ وَزْنَ المنظوم إن لم يكن من البحور الْمُطْرِبَة في نغماتها كان المنثورُ أفضلَ منه، ولا شك أن المنثور في سهولته وطلاقته أفضل من منظوم يأتي من بحر لا تطرب النفس نغماته الموسيقية الشيقة، ولا تخف عليها قافيته التي يظهر فيها من التكلف اللفظي ما ينفر منه الذوق السليم، فأما أن يكون الكلام منثورًا لا وزن له، ولا قافية وإما أن يكون منظومًا بوزن وقافية يجذبان النفوس إليه لا ينفِّرانها منه، ولهذا كان أغلب أشعاري من البحور التي تخف على النفس نغماتُها والقوافي التي لا تكلُّف فيها. هذا

وللمنظوم أغراضٌ لا يجوز أن يخرج عنها، مثل الفخر، والمديح والهجاء والرثاء والشكوى والغزل والوصف الخيالي الذي لا يقيد بحقائق، فإن خرج عن هذا إلى تدوين العلوم المقيدة بحقائق كالتاريخ، وغيره فقد أصبح سخرية وسخفًا كألفية أبن مالك.

ولستُ كغَيري ممن يقولون الشعر أو النظم، وهُمْ مُتفرِّغون له، بل أنا معلمة شغلني حُبُّ التعليم عما سواه من الفنون الجميلة، وما قلتُ شعرًا إلا لحاجة أطلبها لذلك التعليم أو لشيء آسف على ضياعه، وكنتُ أروم منه الخبر لتعليم البنات الذي شغفني حبه، فقلما تخلو قصيدة من قصائدي من الإثارة إليه، فإذا مَدَحْتُ شخصًا فمن أجل ذلك التعليم أمدحه وإذا شكوت الدهر فمن أجله أشكو.

وتكاد قصائدي تكون مجمل تاريخ لأول أدوار تعليم البنات في مصر، وقد ضمَّنتها جزءًا عظيمًا مما كان في الحركة الوطنية التي قد تكون الظاهرة الثانية في أشعاري إذا اعتبرنا أن الظاهرة الأولى هي تعليم البنات.

لهذا أقول إن ديوان أشعاري- إن جاز لي أن أسميه كذلك- ليس كدواوين الشعراء كله خيال، بل هو تاريخ إجمالي للحركة الوطنية والنهضة النسائية في مصر.

نماذج من أشعار نبوية موسى

الاتحاد

إن الشُّعوب بالاتحاد　　　ترقى إلى نيل المراد
فدَعُوا التنافر والخلا　　　فَ فذاك مدعاة الفساد
وتعاونوا في رفع مصر　　　فإنها خير البلاد
بلدُ الحضارة والصنا　　　عة والرقيّ والاجتهاد
كانت عروس الغابريـ　　　ـنَ فأصبحت مهد الكساد
أخنى على أبنائها　　　دهرٌ غريزته العناد
فأباد ماضي مجدهم　　　بدهائه فيما أباد
فتضافروا أبناء وا　　　دي النيل في مجد يعاد
وخُذوا العلوم بهمة　　　فالعلمُ مفتاح الرشاد
ما كان شعبٌ ناهضاً　　　إلا بعلم وسداد
والشرق لولا جهلُه　　　ما أخطأ الغرض المراد
ترك النساء عواطلا　　　وبسعيها تعلو العباد
والغربُ لولا فعلها　　　ما ساد في الدنيا وساد
فتعهدوها مثله　　　وارموا إليها بالقياد
فيها نجاحٌ باهرٌ　　　إن تصلحوها أو فساد
إن النساء لشعبها　　　لأعز كنْز يُستفاد

مصر رياض

يا مصرُ أنتِ جنة … فيها النعيم المنتظر
للدهر أنت غُرة … ودُرّة من الدرر
وفي رُباك فتنة … لكل سمع وبصر
يعليك منا فتية … من كل شهم مقتدر
هم لحماك جنة … إن حل في الدنيا خطر
أبناء مصر كلهم … أصحاب مجد وهِمَم
وما تخطي فعلهم … يوما علاءً وكرم
أو كان يوما حالهم … إلا إباءً وشمم
وليس يُنسي فضلهم … ما دام في الدنيا هرم
أو يتوارى نيلُهم … وفي سما العليا قمر
فاسعوا بني مصر ننل … من دهرنا مجد الأُول
لا يقعدن بكم ملل … فاليأس مدعاة الفشل
والحظ يُدنيه العمل … ويذوده عنا الكسل
والمرء يحظي بالأمل … ما دام مقدامًا بطل
والجد مفخرة الدول … وعليه يرتكز الظفر

مصر ونيلها

يـا مـصـر دومــي بـهـجـة للناظرين
فصفاء جـوك فـوق وصف الواصفين
يــا روضــة تـزهـو بـريـحـان وعين
وســبـائـك فـيـهـا شـفـاء الشاربين
وبـهـاء مجـد ليس تمـحـوه السنون
يـا مـصـر أنــت بمـا حـويـتِ فتنة
مــاء كـمـا شــاء الإلـــه وجنة
ورجـــال صـــدق لم يـهـلـهـا محنة
أو تـشـنـهـا عـمّـا تـــروم أسنة
فـهـم الـكـرام بـنـو الـكـرام العاملين
يـا مـصـرُ يـا أمَّ المـلـوك الفاتحة
هـل كنت إلا في الأكـف الراجحة
وكـذاك أنـت على الحـوادث رابحة
فـتـفـاءلي خـيـرا فـأنـت الناجحة
والله لا ينسي جــزءا المخلصين
يـا مصر حبـك في الحشـا أسكنته
وثـنــاء مجـــدك طـالمـا سطرته
فـيـك الـنـعـيـم وكـل مـا أملته
والله في نجـــواي كـم ناديته
أن تـظـفـري يـومـا بمـا تتطلبين
يـا نـيـل أنـــت أجـل مـا يُـرجَـى لنا
هـــل كــــان إلا في ورودك عزنا

تـأتـي فتكسو الأرضـ أثـواب الهنا
وتحـقـق الآمـــال فـيـنـا والمنى
فاسلم على الأيـــام يـا أقــوى معين
أفـديـكَ بـالـروح الـعـزيـزة يـا وطن
وأذود عـنـك بمهجتي شـر الفتن
والله أســأل أن يفيض لـنـا المنن
لنسود مـا شئنا وشـاء لـنـا الزمن
ونـعـيـد في الـعـلـيـاء مجـد الأولين

آمال مصر

إن شعبا بـالمـعـالي قـد ولع ليس يثنيه عـن العليا فزع
ســيُـوالي سـعـيـه معتصما لا يُـبـالي بـزمـان ذي خُدع
إن هـذا الـدهـر منـهـا عقنا فسيعطي عـن قـريـب مـا منع
إن في كــرّ الـلـيـالي عبرة وصـروف الدهر تأتي بالبدع
عـالجـوا الآمـال في نهضتنا مـا تـولى الـدهـر عنا أو رجع
فمـمات الشعب مـوثـوق به إن هوى في اليأس يوما أو وَقَع
إن بـالـتـعـلـيـم تـرقـي أمة حطـهـا كـرُّ الـبـلاء المندفع
فافتحوا للعلم دُورًا جهدكم إن فيها شـأن مصر يرتفع
واقـتـدوا في نصرة العلم بمن بـين فخر المجد والملـك جمع
إن ربّ الـتـاج يهوى مجدكم وهـو مـقـدام إذا شـاء نفع
وديـــار الـعـلـم لــولا فضله مـا سما فيها هـلال وسطع
ســترى مـنـه المـعـالي ملكا يُخجل البـدر إذا البـدر طلع

فانصروه إنه ناصرُكم ... واذكروا من فعله ما قد صنع
يزرع المعروفَ لا يذكره ... فسلوه كم جميلاً قد زرع
أنت يا مولايَ أقوى عدَّة ... لديار العلم توليها الخلع
فابق فينا للمعالي كعبةً ... ليس يدري من أتاها ما الهلع

مكانة المرأة في الأمة

يا مصر إن جار هذا الدهر أو ظلما
فأنت أنت التي ما نكثت علما
ومجد فرعون لا تنسي مفاخره
وكيف ينسي الذي قد شيد الهرما
لا تيأسي إن عين الله ساهرة
وحكمه نافذ فاستنهضي الهمما
إن الذي خلق الأنعام سائمة
لسوف يعطيك ما تبغينه كرما
أبناؤك الغُر لا يألون جهدهم
فيما ترومين جاد الدهر أو حرما
قد شاقهم حسنُ وادي النيل فانبعثوا
يستعذبون لما يرجونه الألما
وقلبنا الصلد لم يحفل بعاطفة
غدا لحبك يشكو السهد والسقما
لولاك ما انبعثت فينا الحياة ولا
رفعت أناملنا في مبحث قلما
يا قوم إن بلاد النيل يعوزها
علم يجدد مجدا بات منصرما

والبنت أصل رقيّ الشعب إن جهلت

مـال البـنـاءُ الـذي نـرجـوه وانهدما

فـعـلـموهـا تـسـد مـصـر بـهـا وكفي

أن تغرس المجد في الأبـنـاء والشمما

تـأثـيرهـا في نـفـوس الـقـوم ينكره

من أنكر الشمس في الأفـلاك واتهما

لـولا الـفـتـاة لمـا قـالـت أوائلكم

شعرا ولا اقتحموا جيشًا قد اضطرما

لا تحسبوا الـيـأس تحميكم بوادره

مـن الخضـوع لما تـهـوى وإن عظما

لـهـا الجـنـان الـذي لم يـنـبُ صارمه

عـمـا أراد مـن الـدنـيـا ومـا عزما

يطيعها البـطـل الصنديد ما أمرت

فكم أسـاءت وكـم قـد قـدمت أمما

جهـنـم الـكـون إن سـاءت وجنته

إن مـال رائـدُه لـلـخـير وانتظما

فكيف تـرضـى بـأن نلقي بـهـا عبثا

إلى مـعـاهـد لا تـرعـي لـنـا الذمما

تـبـث في نفسها مـا شـاء منشؤها

مـن الـغـرور فتنسي المجد والشمما

فـعـلـموا بـنـت وادي الـنـيـل رفعته

حـتـى تحـرك في حـب الـبـلاد فما

لـو أنـهـا عـرفـت مـقـداره عظما

بـاعـت لـتـفـديـه نـفـسـا حـرة ودما

قـد أهـمـل الشرق إعـلاء النساء وفي

رقـيـهـن فـخـار الـشـرق لـو علما

وغـر أبـنـاء مـصـر مَـيْنٌ غاصبهم

فـخـلـفّوا الـعـمـل المـبرور منعدما

يـسـرنـا حـسـن ألـقـاب ومرتبة

فـلا نـحـرك في نـيـل الـعـلا قدما

لا تتبعوا الجبن واسـعـوا في مناكبها

فـقـد يـصـادف رب الجـرأة النعما

نـالـوا بـأفـرادهـم مـا شـاء مجدهم

وخـلّـف الضعف في أفـرادنـا الندما

إن سـار فيهم إلى نـيـل الـعـلا أحد

أعـانـه الشعب فيما ينبغي فسما

ونـحـن إن سـار فـيـنـا لـلـعُـلا رجل

ملنا عليه بسيف الـلـوم فانهزما

ثـقـوا بمـقـدرة المـصـريّ واعتصمُوا

فليس يفشل شعبٌ بـات معتصما

وشـجـعـوه عـلـى الأعـمـال يطلبها

يرمي بسهميه إن ذاك الغريب رمى

فـإنمـا الـشـعـب بـالأفـراد إن غنموا

في ساحة العمل الـراقـي فقد غنما

تعليم النساء

بالعلم ترتفع البلاد وتظفرُ ... ويسود بعد خُموله المتأخرُ
فإذا ولاة الأمر راموا نفعها ... عمدوا إلى دُور العلوم فعمروا
وتعهدوا التعليم فيها بالذي ... يرجى لهم منه النجاح وأكثروا
والخير ما تعلو به أوطاننا ... علم تواليه الفتاة فيثمر
علم تعز به الفتاة وترتقي ... وتسود حين تكون أما تبصر
فإذا المليكُ سعي إلى تعليمها ... فانعم بما فعل المليك الأكبر
واشكر له حُسْن العناية بالذي ... يُعلي البنات فذاك فضل يؤثر
وابسُط يد الترحاب في تشريفه ... لمعاهد منهن ملأى تزهر
إن النساء عمادُ كل فضيلة ... فإذا هوت فالفضل قاع مقفر
إن النساء يدُ الرجال وعونهم ... فإذا هوت خاب الرجال ودمروا
إن النساء تقيم ميل وليدها ... فإذا ارتقت طابت وطاب العنصر
إن النساء إذا تنوّر عقلها ... بالعلم فهي أجلّ ذخر يذخر
ترضي العلا وتنال ما يرجى لها ... من عفة وفضائل لا تنكر
لا ترتقي أمٌ بغير نسائها ... أبدا وتعلو بالنساء وتفخر
هذى نساءُ الغرب قد طارت به ... فوق السها والشرق لاهٍ ينظر
هذي سبيل المجد إن شئتم فلا ... تتواكلوا فيها ولا تتأخروا
إني أبشركم بفوز عاجل ... إن صار للفتيات شأن يذكر
من رام للأوطان عزا فليكن ... لمعاهد الفتيات عونا ينصر

أبطال مصر

يا مصر يا فخر المدائن والقرى
كم لج دهرك في العناد وأكثرا
يا أم آمون غدوت بحاجة
لذكائه المخبوء في جوق الثرى
لو كان حيا ما تجاسر لوردهم
أن يستبد بما أبان وأظهرا
كلا ولا وطئتك يوما خيلهم
واستعذبوا من ماء نيلك كوثرا
فرعون لو نظروا سيوفك شُرعا
لارتاع طاغيهم وولى مدبرا
هابوك في طي اللفائف مغمدا
ما بالهم لو أبصروك مشهرا
يا مصر هذا شأن دهرك فاصبري
لا تجزعي مما أكن وأُضمرا
ما زال غدارًا يخور ويعتدى
ويهد من شادوا بحذقهم الورى
سلب الزمان بنيك كيدًا للعلا
لله ما أقوى الزمان وأقدرا
كم أبلت الأيام شهمًا ماجدًا
من أهل مصر وكم أبادت قيصرا
يا دهر كم تسطو بسيفك قوة
وتغول من أبطال مصر غضنفرا

طـاحــت بـكـامـلـنـا لـيـالـيـك التي
مــن شــأنــهـا أن تــسـتـبـد وتقهرا
وطــوت فــريــدا في الـبـلـي ومحمدا
وبــقــاســم أخــفــت هــــلالاً نيرا
راحـــت بـبـاحـثـة وكـانـت قدوة
في كـل مـا سـاق الـثـنـاء وأمطرا
وهـــوت بـسـعـد بـعـد طـول جهاده
فـانـهـد رُكـــن الـنـيـل لمـا أدبرا
ومـضـى وقـد سـلـب الـعـقـول بيانه
وســخـا بمصر وأهـلـهـا مـا سطرا
فـنـبـوغ مـصـر بمـن تـقـدم ذكرهم
أعـيـت حـقـائـقـه المـضـل المنكرا
أو يـنـكـرون فـخـار مـصـر ومجدها
وكـفـايـة المـصـري أوضـح مـا يرى

مصر وأهلها

يــا مـصـر مـــاذا جــرّه أهلوكِ
حتى رَكـنـتِ لإفـك مـن غبنوكِ
تحلـو الأقـامـة لـلـغـريـب ويرتقى
ويـظـل في وادي الـهـمـوم بَنُوكِ
كـم ســاد في أرجـــاك غــرٌّ خامل
وسمت بأرضك سمعة الصعلوكِ

يــا أم فــرعــونٍ وأنـــت حكيمة
كـيـف ابـتـسـمـت لمـعـشـر ظلموك
يــا جــنــة الــدنــيــا وبــهـجــة أهلها
لا كـــان مــن بــعــنــادهــم قصدوك
أبــنـــاؤك الــغُـــرُّ الأفـــاضــــلُ كلهم
أصـــل الــعــلا مــن ســوقــة وملوك
هـم خـيرُ مـن درسـوا الفنون فأدهشوا
هــذا الــزمـــان بـحـســنـهـا المتروك
آثـــارهــــم لا يــســتــطــيــع معاند
إتــقـــان دقـــة صـنـعـهـا المسبوك
حــســدوا جـمـالـك فـاسـتـبـدوا عنوة
لـــولا محـاســنـك لمـــا حسدوك
لـــولا نـــوالـــك مـــا تـــهـــافـت جمعُهم
يـتـلـقـطـون الخـــيـر في واديك
أيـــقــول عــنـــا الـــغـــربُ إنــــا أمة
لا تـــهـتـدي لـطـريـقــه المسلوك
كـــذَبَ الـــعِـــدَاةُ فــأنــتِ أول أمة
ســـادت وإن هـــانـــوك أو سلبوك
وزمـــان إســـمـــاعــيــل يــشــهــد بالذي
يُـخـزي الـذيــن بـإفـكـهـم شانوك
فـتـح المـــدارس واســـتـقـل كثيرها
ومحـــا عـــن الأذهــــان كـــل شكوك

فتحرك الغربُ الطموح لفعله
وأبى على الأهلين أن يعلوك
أو هكذا يا مصر يحرمنا العلا
هذا الغريبُ بِمَكْرِهِ المحبوك
حسد الرقيّ فلم يقر قراره
إلا بإبعاد الأُلي رفعوك
لا تيئسي إن الخطوبَ كثيرةٌ
والفوز مضمونٌ وإن خذلوك
واستقبلي غدر الزمان بحكمة
عرفت وثغْرٍ للخُطوب ضَحُوك

ذكرى المرحوم

الأستاذ الإمام محمد عبده

أعيدوا ثناءَ النابهين وجدِّدوا
مآثرهم ما دام في الشرق مُنْشِدُ
فما أبلت الأيام آيات مجدهم
ولا طاش شهمٌ صوَّبوه وسددوا
وإن تذكروا أبناء مصر ومجدهم
فأولاهم بالمكرمات محمد
إمام وأستاذ وقاض، وكاتب
يرد افتراء المفترين ويسرد
ولولاه للتفسير ما بانَ غامضٌ
ولازال إشكال ولا لاح فرقد

ولـو عـاش للفتوى لما ضـلَّ سائل
ولا كـان فـيـنـا عـالم يتردد
وكـم نـافـسـوه ظـالمين وسرَّهم
كـلام أبـاحـتـه الـغـوايـة مفسد
ومـا كـان إلاّ كـالـنـبـي هداية
وكـم جـحـدوا فضل النبي وفندوا
فـلا تـتـنـاسـوا مـا أتـاه فإنما
مـن الـعـار أن ينسى الـكريم الممجد
ولا تـتـنـاسـوا في الـبـطـولـة قاسمًا
فـآراؤه تحـيـي الـبـلاد وتسعد
جـريءٌ فـلـم يـرهـبـه قـول جموعهم
وقـد هـددوه سـاخـطـين وأوعدوا
فـإن يـنـسـه جـمـع الـرجـال فإننا
نـكـرر ذكـرى قـاسـم ونمجِّد
وكـامـل لـن يُنسى وأن طـال عهدُه
فـمـا كـان إلا شـعـلـة تتوقد
ولا تـتـركـوا ذكـرى فـريـد فإنه
هـمـام أضـاعـتـه الـكـنـانـة مفرد
وبـاحـثـة مـا غـاب وقـع يراعها
إذا ذكـر الـكـتّـاب يـومًا وعددوا
أولـئـك أبـنـاءُ الـبـلاد وفخرها
وهـل يـتـوارى فـخـرُ مصر المخلد

إذا ذكــــروا يــومــا فـــإن فعالهم
بفضل رجـال النيل تشدو وتشهد
فـمــاذا يـقـول الـغـاصــبـون بأفكهم
وهـذا ابـن وادي النيل يعلو ويصعد

هَوَى مصـر

لا كـان قلبي إذا لم ينتفض طربًا
لـذكـر مصر ولم يستعذب التعبا
لم أذكـــر الحــب إلا في محاسنها
ولا عـرفـتُ لـهـا لـهـوًا ولا لعبا
لــولاكِ يـا مصرُ مـا أصـبـحـتُ عاتبة
عـلـى الـزمـان إذا مـا جـار وانقلبا
ولا طـويـتُ الـلـيـالي فـيـك ساهرة
أكَـد لا أشتكى ضعفًا ولا نصبًا
لا عـار إن خانك الـدهـر الخـئـونُ فكم
كَــلَّ الحـســامُ بـكـفَّـيْ قـــادرٍ ونبا
وفي ربــوعــك آســـــادٌ إذا وثبوا
مـال الـزمـانُ إلى مـا نشتهي وصبا
لا يـضــربـون بـنــار الحــرب خصمهم
لـكـن بـــرأي ســديـد يمطـر اللهبا
فـوحّـدوا الـــرأي لا يلهيكم غرض
عن نصر مصر ولا تستبعدوا الأربا

ضُمّوا الصفوف وقوموا حول نيلكم
فليس يفلحُ شعبٌ بات مُنشعبًا
لا كان من خان مصرًا في مطالبها
أو نام عنها وعن إعلائها رغبًا
أحب مصر وأهليها وإن غبنوا
وأستشيط لهم من عزةٍ غضَبَا
والدهر يقعد بي رغم العُلا وبهم
ويسلب المجد موروثًا ومكتسبًا
ولا سبيل إلى ما نبتغي أبدًا
إلا إذا ما غرسنا العلم والأدَبا
فشجعوا العلم لا تبغوا به بدلاً
ففيه آمالنا إن حل أو ذهبا
والقوم لولاه ما سادوا ولا ارتفعوا
ولا تقدم عاتيهم ولا غلبا
وعاونوا ملكًا يعليه مقتدرًا
ويستقل الذي من أجله وهبا
يشجع العلم مسرورًا وينشره
وكم أراد لنا مجدًا وكم طلبا
كم زينت رحباتِ الدرس طلعتُه
وانهال وارفُه للخير وانسكبا
من معشر إن بدت يومًا وجوهُهم
لأهل مصر نسوا من أجلها النوبا

أبنـاء مـن شيد المجـد الـذي عجزت
عنـه الملـوك فسـاد الـترك والعربا
وهُـم أهـلـة مـصـر السـاهـرون لها
لا يـعـدلـون بـهـا جـاهـا ولا نشبا
أعـمـالـهـم كشموس الأفـق ساطعة
فـإن حـذا حـذوهـم في المجد لا عجبًا
أغـر لا تـعـرف الأقـوال همته
إذا دعـاه ضـعـيـف لـلـعـلا وثبا
دعـوتـه فـأتـى لـلـعـلـم مبتدرًا
يخشى عليه إذا مـا مـاؤه نضبا
فـإن جـهـلـتـم أيـاديـه فدونكم
مـن فضله مـا يـزيـن الشعر والأدبا
لا ينكر الـفـضـل إلا مـن لـه غرض
ولا يسود الـذي يستمرئ الكذبا
خـلـوا الخـلاف وقـومـوا حـول سُدَّته
لـعـل وحـدتـنـا تـدني الـذي عزبا
وساعدوا العلم ما اسطاعت عزيمتكم
فـقـد يـلـين لـنـا بـالـعـلـم مـا صعبا

نيل مصر

إذا ما النيل حط بنا الرحالا
وفاض على شواطئه وسالا
وأهدى مصر جلبابًا موشى
بفضته فألبسها جمالا
أرادت أن تباريه فغطت
بسندس نبتها تلك الرمالا
وأبدت دُرّها المكنون حتى
يطيب الضيف في الأحياء حالا
وماس الغصن من طرب وأوما
بشكر النيل إذ بذل الزلالا
فنخرج من بطون الأرض تبرا
ونأكل طيبًا حسنًا حلالا
ولا نخشى من الأيام قحطا
ولا عسرا يكلفنا السؤالا
ولا برد يضر المرء فيها
ولا حر إذا ما الظل زالا
فنعم الأرض ما أحسنت فيها
ولم تطع الغواية والضلالا

الفصل العاشر

نبوية موسى.. تواريخ وأعمال

(١٣٠٤ - ١٣٧١هـ)

(١٨٨٦ - ١٩٥١م)

نبوية موسى إحدى رائدات التعليم والعمل الاجتماعي خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهي أول ناظرة مصرية، وكانت من رعاة الدكتورة سمير موسى عالمة الذرة المصرية، وكانت من رائدات العمل الوطني وتحرير المرأة والحركات النسائية المصرية القرن الماضي.

بداية حياتها

ولدت نبوية موسى في ٢٠ ربيع الأول ١٣٠٤هـ الموافق ١٧ ديسمبر ١٨٨٦م، بإحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، لوالد كان ضابطًا بالجيش المصري برتبه اليوزباشي، سافر إلى السودان قبل ولادة نبوية بشهرين وتوفي هناك.

بدأت نبوية موسى بتلقِّي تعليمها في بيتها حيث تعلمت القراءة والكتابة بمساعدة شقيقها الذي كان يدرس بمدرسة في القاهرة، وقد انتقلت معه أسرتها للإقامة بها، وقد عارضت أسرتُها رغبتها في التعليم والتحاقها بالمدرسة، فما كان من نبوية موسى إلا أن سرقت ختم والدتها لتقدم نفسها للالتحاق بالمدرسة، كما ذكرت في كتابها (تايخي بقلمي) والتحقت نبوية بالمدرسة السنية للبنات بالقاهرة.

كفاحها في التعليم

حصلت نبوية موسى على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٣م، ثم التحقت بقسم المعلمات السنية وأتمت دراستها في عام ١٩٠٦م، وعينت مدرسة بمدرسة عباس الابتدائية للبنات بالقاهرة.

وعندما وجدت أن راتبها نصف راتب زملائها المعلمين خريجي مدرسة المعلمين العليا، تقدمت نبوية باحتجاج إلى وزارة المعارف تدين فيها هذه التفرقة، فجاءها الرد بأن تلك التفرقة ترجع إلى أن خريجي المعلمين العليا حاصلين على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة).

تقدمت نبوية موسى للحصول على شهادة البكالوريا بمجهود ذاتي حيث لم يكن يوجد في ذلك الوقت مدرسة بكالوريا للفتيات، لتكون بذلك أوّل فتاة مصرية. واستطاعت نبوية أن تنجح في الامتحان وتحصل على شهادة البكالوريا في عام ١٩٠٧م، وكان لهذا النجاح ضجة كبري ونالت نبوية موسى بسببه شهرة واسعة.

وفي هذه الفترة بدأت نبوية تكتب المقالات الصحفية التي تتناول قضايا تعليمية واجتماعية أدبية، وألفت كتابا مدرسيا بعنوان «ثمرة الحياة في تعليم الفتاة»، قررته نظارة المعارف للمطالعة العربي في مدارسها، كما انتدبت الجامعة الأهلية المصرية إثر افتتاحها عام ١٩٠٨م نبوية موسى مع ملك حفني ناصف ولبيبة هاشم، لإلقاء محاضرات بالجامعة تهتم بتثقيف سيدات الطبقة الراقية.

في العام ١٩٠٩م تركت نبوية موسى الخدمة في وزارة المعارف، وتولت نظارة المدرسة المحمدية الابتدائية للبنات بالفيوم، وهي مدرسة أنشأتها مديرية الفيوم، لتكون بذلك أو ناظرة مصرية لمدرسة ابتدائية، واستطاعت

نبوية موسى النجاح في مهمتها بنشر تعليم البنات في الفيوم، مما ظهر في الإقبال الكبير وزيادة عدد التلميذات بالمدرسة.

في العام ١٩١٠م رشَّحها أحمد لطفي السيد لتكون ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة، فتولت إدارتها، واستطاعت أن تنهض بهذه المدرسة، حتى حازت المركز الأول في امتحان كفاءة المعلمات الأولية.

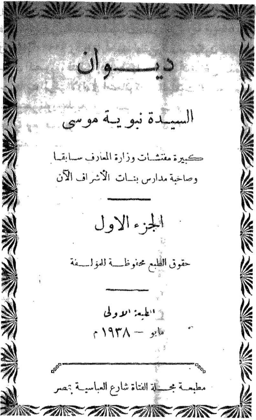
لم تستمر نبوية طويلاً في المنصورة، حيث تم نقلها إلى القاهرة لتعين في وزارة المعارف، بوظيفة وكيلة معلمات بولاق، في ديسمبر ١٩١٤م، وتم ترقيتها بعد ذلك في العام ١٩١٦م ناظرة لمدرسة معلمات الورديان بالإسكندرية، وظلت في هذه الوظيفة حتى عام ١٩٢٠م، ونجحت بالاتفاق مع أعضاء جمعية ترقية الفتاة في تأسيس مدرسة ابتدائية حرة للبنات في الإسكندرية تولت نبوية إدارتها.

تعتبر الفترة فيما بين (١٩٣٧ – ١٩٤٣م) هي أزهي فترات نبوية موسى وأكثرها نشاطًا وحيوية، فإلى جانب إدارتها للمدارس التي اكتسبت سمعة طيبة، قامت بإنشاء مطبعة ومجلة أسبوعية نسائية باسم الفتاة، صدر العدد الأول منها في عام ١٩٣٧م.

لنبوية موسى تراث في الفكر التربوي، خاصة أنها شاركت في كثير من المؤتمرات التربوية التي عقدت خلال النصف الأول من القرن العشرين لبحث مشكلات التعليم، كما أن لها بعض المؤلفات الدراسية التي قررتها وزارة المعارف.

أعمالها الفكرية

بالإضافة إلى ديوانها الذي طبعته عام ١٩٣٨م، لها مؤلفات عدة، منها: كتاب مدرسي بعنوان «ثمرة الحياة في تعليم الفتاة»، قررته نظارة



ديوان

السيدة نبوية موسى

كبيرة مفتشات وزارة المعارف سابقا

وصاحبة مدارس بنات الأشراف الآن

الجزء الاول

الطبعة الاولى

مايو — ١٩٣٨ م

مطبعة مجلة الفتاة شارع العباسية بمصر

غلاف الطبعة الأولى لديوان نبوية موسى

المعارف للمطالعة العربية في مدارسها، و«المرأة والعمل»- القاهرة ١٩٣٩، و«تاريخي بقلمي»- منشورات المرأة والذاكرة- القاهرة ١٩٩٩، ولها مقالات عدة تتناول قضايا تعليمية واجتماعية وأدبية، نشرتها صحف عصرها.

شعرها تعبير عن القضايا التي شغلتها، ومنها قضايا تحرير المرأة، وقضايا التعليم في مصر والوطن العربي، والقضايا الوطنية والتعبير عن حبها لمصر والافتتان بها. ولها قصائد في رثاء زعماء الأمة العربية، وشخصياتها البارزة، وتحتل ثورة سعد زغلول (١٩١٩) بأحداثها وزعمائها مساحة غير قليلة من ديوانها. وصفت شعرها في مقدمة ديوانها قائلة: «وتكاد قصائدي تكون مجمل تاريخ لأول أدوار تعليم البنات في مصر، وقد ضمّنتها جزءًا عظيمًا مما كان في الحركة الوطنية.. لهذا أقول: إن ديوان أشعاري- إن جاز لي أن أسميه كذلك- ليس كدواوين الشعراء كله خيال، بل هو تاريخ إجمالي للحركة الوطنية والنهضة النسائية في مصر».

نشاطها الصحفي

- كتبت في جريدتي: المؤيد، ومصر الفتاة.
- أصدرت مجلة ترقية الفتاة بالإسكندرية «ظهر العدد الأول في ٥ يونيو ١٩٢٣».
- أصدرت مجلة «الفتاة» في أكتوبر ١٩٣٧، وتوقفت في يونيو ١٩٤٣، «وكانت تصدر أسبوعيًا».

المراجع

١- نبوية موسى: ذكريات معلمة- رانيا عبد الرحمن، وهالة كمال (مقدمة كتاب تاريخي بقلمي)- مكتبة الأسرة ٢٠٠٣.
٢- تاريخي بقلمي- نبوية موسى، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣.
٣- ديوان نبوية موسى- تقديم ودراسة: عفاف عبد المعطي- المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢.
٤- الشبكة الدولية للمعلومات.

المحتوى

مقدمة ٥

الفصل الأول: النزوع إلى الحرية ٩

الفصل الثاني: رفض التبعية ١٣

الفصل الثالث: كيف تعلمت نبوية؟ ١٧

الفصل الرابع: كيف دخلت المدرسة السَّنية ٢٣

الفصل الخامس: أول بكالوريا لفتاة مصرية ٢٩

الفصل السادس: عن الحرية والتمرد ٣٥

الفصل السابع: الرائدة التعليمية والتربوية ٤٣

الفصل الثامن: مختارات من مذكرات نبوية موسى ٥١

الفصل التاسع: نبوية موسى الشاعرة ٩٩

الفصل العاشر: نبوية موسى.. تواريخ وأعمال ١٢١

المراجع ١٢٦

يصدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
المجلس القومى للشباب



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقًا أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ لنفسه، ويقرأ للآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر [illegible] الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، و[illegible] أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة.

سوزان مبارك